ومضات من الماضي

مجموعة قصصية

أيمن فاروق طه

obeikandl.com

الكتاب: ومضات من الماضي
المؤلف: أيمن فاروق طه

الطبعة الأولى: يناير ٢٠١٦
رقم الإيداع: 22653 / 2015
الترقيم الدولي: 4- 44 - ٦٤٤٥- ٩٧٧- ٩٧٨

المدير التنفيذي : آية عفيفي
مراجعة لغوية : حسين محمد
اخراج داخلي: أيمن فخري
غلاف : NileDesign.com

كامل حقوق النشر والطبع محفوظة
دار الابداع للنشر والتوزيع
موقع دار الكتب الإلكتروني
العنوان : المعادي- ٥برج متوسط- ابراج عثمان
هاتف : ٠١٠٠٢٠٥٢٢٦٦
E-mail: info@daralkotob.com
www. daralkotob.com

obeikandl.com

ومضات من الماضي

دار الكتب
Daralkotob

obeikandl.com

obeikandl.com

"إهداء"

إلى كلِّ من آمن بموهبتي وشجعني على الدخول في مجال الكتابة الأدبية، إلى كل من قرأ كتابي الأول "حلقات مفرغة" وأمدَّني برأي أو نصيحةٍ أو انتقادٍ أو مدح، إلى كلِّ من ساعدني في عملياتِ المراجعةِ اللغويةِ والتصميمِ والطباعة، إلى كلِّ من سيقرأُ الكتاب ويصبحُ جزءًا منه فكرًا وفكرةً وحدثًا، إليكم جميعًا أهدي هذا الكتاب.

obeikandl.com

"تقديم وتعريف"

نعيش حياتنا في حالة من الصراع الدائم سواءَ مع أنفسنا أو الأشخاص المحيطين بنا أو الظروف المؤثرة علينا، نؤثر ونتأثر، ننتصر- حينًا وننهزم حينًا، نتراجع يومًا ونتقدم يو مًا، ولكننا قليلا ما نهدأ ونسكن لنفكر فيما هو أبعد مما تحت أقدامنا.

وفي خِضَمِّ تلك الصراعات وما يتخللها من أحداث، كثيراً ما نفقد بوصلتنا الداخلية؛ فيضيع منا الاتجاه، ونسير بعيدًا عن الهدف، ونغرق في تفاصيل الحياة اليومية، وتبتلعنا صغائر لا معنى لها، ثم تجرفنا تيارات من الانفعالات اللحظية ومن مجاراة للأعراف المجتمعية السائدة، ومن الخوف الذي يتم تنشئتنا عليه إلى شواطئ لم نكن نقصد الإبحار إليها، لنجد أنفسنا -في نهاية رحلتنا- نرسو في موانئ لا نعرف فيها أحدًا، ولنكتشف أننا قد حاولنا إرضاء الجميع إلا أنفسنا.

وعندما يعيد ذهننا الإبحار في تلك الأحداث ندرك أننا قد أغفلنا رؤية ومضات واضحة أُرسلت لنا لتنبيهنا بأننا لسنا على الطريق القويم، ولكن انشغالنا بصراعات الحياة وتفاصيلها جعلنا لا ننتبه لتلك الومضات، وغالبًا ما نمضي آخر أيامنا نتجرع كأس الندم كلما أبحر عقلنا في بحور الذكريات واستعاد تلك الومضات من الماضي.

أيمن فاروق طه

٢٠١٥

Facebook.com/Ayman.Farouk.Taha

obeikandl.com

"كلُّ القصصِ والشخصياتِ والأحداثِ الواردة في هذا العملِ الأدبي هي من خيالِ المؤلف وليس لها علاقة بالواقع مطلقًا".

obeikandl.com

obeikandl.com

ميدان الحياة

بعد أن أنهت (تسليم) احتفالها بعيد ميلادها الخامس والخمسين وغادر ضيوفها الأربعة، اتجهت إلى زوجها قائلةً: شكرًا جزيلًا على هذه المفاجأة الرائعة يا حبيبي، فقد كانت لفتةً رائعةً منك أن تدعو صديقتيَ الوحيدتين وزوجيهما للاحتفال معنا.

الزوج: لا داعي للشكر يا حبيبتي، فهذا أقل ما يمكن أن أقدمه لزوجتي المثالية. ثم قَبّلَهَا وأضاف: أنا أعلم أن اليوم هو يوم مميز بالنسبة لك، فقد حصلتِ أخيرًا على ترقيتك، وأصبحتِ رئيس قسم الدراسات الاجتماعية، وهو أيضًا يوم ميلاد أجمل وأرقَ هدية بعثها الله لي.

تسليم: أجل، فاليوم يمثل تتويجًا لرحلة كبيرة من العمل والتعب، ربما يكون هذا التتويج متأخرًا بضعة أعوام ولكنه أتى على كل حال.

الزوج: نعم، لقد كانت رحلةً طويلةً ومتعبةً، ولكنها أثمرت إنجازًا متميزًا، سأذهب الآن لأبدل ثيابي ثم أنال قسطًا من النوم، تصبحين على خير.

تسليم: تصبح على خير يا زوجي الحبيب.

ذهبت (تسليم) إلى غرفة المعيشة وقامت بترتيبها، كما جمعت الأطباق والملاعق والشوك والسكاكين ثم اتجهت بهم إلى المطبخ، بعد ذلك أفرغت محتويات الأطباق، إلا أنها لم تجد في نفسها الرغبة أو القدرة على غسلهم؛ فوضعتهم في الحوض، ثم أعدت لنفسها فنجانًا من الشاي.

بعدها عادت إلى غرفة المعيشة ثم جلست تشرب الشاي، ألقت نظراتٍ عابرةً على محطات حياتها، دراستها، تخرجها في الجامعة، تعيينها في نفس المدرسة الثانوية التي تخرجت فيها، ثم زواجها، وأيضًا عملها وترقياتها، لم تجد أمورًا غير ذلك تتذكرها فحياتها بسيطة ومحددة ومحدودة للغاية، وتيرة واحدة مستمرة ومتكررة وتكاد تكون بلا جديد على الإطلاق.

إلا أنها بعد فترة قصيرة من الاسترخاء عادت بذاكرتها إلى يـوم بعينه بكامل أحداثه وتفاصيله، يوم عاشته منـذ سـبعة وثلاثـين عامًـا، وكلما استرجعت ذكرى أو حدثًا يزداد بداخلها شعور بالندم، فقد تمنت لو أنها تصرفت بعد ذلك اليوم بطريقة مختلفة، تمنت لو أنها تعلمـت من ذلك اليوم؛ فقد كان الدرس واضحًا وضـوح البـدر عنـدما يتوسـط سماء ليلة صيف صافية، إلا أنها وقتذاك ربما رفضـت ذلـك الـدرس أو ربما خافت منه.

ولـكي تكتمـل الصـورة في ذهنهـا ويـترابط تسلسـل الأحـداث عـادت بـذاكرتها إلى اليـوم السـابق ليومهـا المميـز، ثـم اسـترجعت الذكريات بالتفصيل بدءًا من تلك النقطة من الزمن.

عادت إلى عام ألفين وخمسة عشر، كان يومًـا جامعيًـا عاديًـا، أنهت محاضراتها في كلية الآداب نحو الساعة الرابعة عصرًا، ثم اتجهت سـيرًا عـلى الأقـدام عائـدةً إلى منزلهـا كعادتهـا اليوميـة منـذ التحاقهـا بالجامعة، استغرقها طريقها اليومي المعتاد نحو ثلاثين دقيقـة أمضـتها في السـير بهـدوء نـاظرةً إلى الأرض، لا تكـاد ترفـع بصرهـا إلا قلـيلًا وللضرورة فقط لا غير.

وصلت (تسليم) إلى المنزل، بَدَّلَت ثيابها وجلست لتناول طعام الغداء مع والدها الموظف بإحدى شركات التأمين الحكومية ووالدتها مدرسة التاريخ بإحدى المدارس الثانوية الحكومية، وكذلك أخيها الأصغر الطالب في المرحلة الثانوية، ثم بعد انتهائها من الغداء جلست تشاهد بعض البرامج التليفزيونية لمدة نصف ساعة تقريبًا، وبعد ذلك دخلت غرفتها لتدرس، واستمرت تستذكر دروسها حتى العاشرة مساءً وهو ميعاد نومها اليومي، عندئذ أدت صلاة العشاء ثم خلدت للنوم.

اعتادت (تسليم) اتباع هذا النظام اليومي منذ التحاقها بقسم التاريخ في كلية الآداب، لم تكن لها هوايات إلا بعض القراءات في مجال التاريخ أيضًا، أما حياتها الاجتماعية فقد استمرت كما كانت قبل دخولها الجامعة، مجرد ظل لوالدتها أو صورة باهتة لها، فهي لا تمتلك حياةً اجتماعيةً بالمعنى المفهوم إلا بعض الزيارات العائلية التي اعتادت حضورها بانتظام مع أسرتها عمومًا ووالدتها تحديدًا.

استيقظت (تسليم) في تمام السادسة صباحًا، أدت صلاة الفجر ثم تناولت إفطارها، بعدها ارتدت ثيابها واتجهت إلى الجامعة لحضور محاضراتها، وكعادتها اليومية أيضًا، استقلت (تسليم) سيارة

نقل جماعي (ميكروباص) من أمام منزلها في نحو السابعة والربع لتصل بعدها بعشرين دقيقة إلى الجامعة.

في الدقائق المتبقية قبل بداية أولى محاضراتها لذلك اليوم فَكَّرَت (تسليم) في أنها تحتاج إلى تغيير ما في وتيرة يومها، وقالت لنفسها: سأحاول اليوم أن أقوم بشيء جديد. وعند الساعة الثامنة وبضع دقائق، دخل إلى قاعة المحاضرات أستاذ التاريخ الروماني ليلقي محاضرته.

كان جدول محاضراتها لذلك اليوم يتضمن محاضرتين فقط تنتهي ثانيتهما في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وبعد أن انتهت من محاضراتها قالت لإحدى صديقاتها: لا أريد أن أعود إلى المنزل الآن، أريد أن أفعل شيئًا جديدًا.

فقالت لها صديقتها: هذه أول مرة أسمعك تقولين شيئًا كهذا!

فقالت (تسليم): هذا صحيح، ولكنني أكرر نفس الأفعال بشكل يومي منذ فترة طويلة وأريد أن يكون هذا اليوم استثناءً.

فقالت لها صديقتها: حسنًا، لنخرج مع بقية المجموعة، فهم ذاهبون إلى السينما.

فكرت (تسليم) لبرهة، فطوال سنوات عمرها التي جاوزت الثمانية عشرة بأشهر قليلة لم تذهب إلى السينما إطلاقًا، وذلك بسبب رفض والديها أن تذهب مع أصدقائها، وأيضًا رفضهما أن يذهب أحدهما معها لعدم اهتمامهما بهذا الفن من الأساس.

وبعد التفكير قالت (تسليم) لصديقتها: فكرة رائعة، سأذهب معكم. وأَسَرَّت في نفسها أنها لن تخبر أهلها بأنها ذهبت إلى السينما مع أصدقائها.

بعد عدة دقائق من الحوارات القصيرة والاتفاقات السريعة والأخذ والرد بين مجموعة الأصدقاء، اتفق أربعة أصدقاء من المجموعة على الذهاب إلى السينما، (تسليم) وصديقتها مع صديقين آخرين من نفس الكلية.

خرج الزملاء الأربعة من باب الكلية ثم ساروا لخمس عشرة دقيقة في نفس الطريق الذي تسلكه (تسليم) وهي عائدة إلى بيتها، ثم انعطفوا يسارًا وساروا لعدة دقائق أخرى قبل أن ينعطفوا يمينًا مرةً أخرى، وبذلك أصبحوا يسيرون في طريق مواز للطريق الخاص بعودة (تسليم) من كليتها إلى منزلها، وبعد نحو ربع ساعة أخرى من السير وصلوا إلى ميدان واسع للغاية وشديد الازدحام، وكان به عدة

قاعات عرض سينمائية أسفل أحد المباني الإدارية، بالإضافة إلى احتوائه على الكثير من المطاعم والمقاهي بشتى أنواعها.

انبهرت (تسليم) برؤية ذلك الميدان المليء بالحيوية، وازداد انبهارها عندما بدأت تلاحظ تفاصيل ما فيه من مبانٍ ومتاجر ومطاعم ومقاهٍ وازدحام وحركة منتظمة وغير منظمة، سواءً للبشر أو لوسائل النقل الجماعي بأنواعها.

قالت (تسليم) في نفسها: بملاحظة اتجاهات سيرنا ومدته، فأنا أظن أن هذا الميدان لا يبعد عن بيتي كثيراً، فكيف لم آتِ يومًا إلى هنا؟! وكيف لم أعرف بوجود هذا الميدان مطلقًا قبل اليوم؟!

وفجأة قطع أحد أصدقائها حوارها مع نفسها قائلًا لها: ما هو الفيلم الذي تفضلينه؟

فأجابته: لا أعرف على وجه التحديد، ولكنني أريد فيلمًا غير تقليدي.

فقال متسائلًا: ماذا تقصدين بقولك غير تقليدي؟

فأجابته: أريد أن أشاهد قصةً غير تقليدية وغير واقعية، أريد أحلامًا وخيالًا.

شاهدت (تسليم) على وجه زميلها علامات الدهشة والتعجب مما قالت، ثم قال زميلها موجهًا كلامه للجميع: حسنًا، سنختار الفيلم الأكثر خيالًا، موافقون؟

فوافقه الجميع، واختاروا أحد الأفلام التي تحتوي على درجة عالية من الخيال العلمي.

دخلت (تسليم) من بوابة السينما وهي تتأمل كل شيء حولها بكافة تفاصيله الدقيقة: العاملون، الرواد، الملصقات الدعائية للأفلام (الأفيشات)، ماكينات الفشار وثلاجات مشروبات المياه الغازية بأنواعها، لم تترك تفصيلًا إلا وحاولت التدقيق فيه وهي تمشي بخطوات بطيئة مع أصدقائها حتى وصلت إلى قاعة العرض.

حاولت أن تتابع بكل حواسها جُلَّ ما يحدث في هذا العالم الذي تدخله لأول مرة؛ حوارات بعض رواد السينما الهامسة، وصمت البعض الآخر وتَرَقُّبَه لبداية العرض، وسَرَحَان البعض وعدم تركيزه، في حين كان يمسك آخرون بهواتفهم المحمولة، بعضهم يتكلم فيها لإنهاء بعض الأمور العاجلة في حين كان البعض الآخر يرسل رسائل نصيّةً وما شابه، كما لمحت البعض يلعبون على هواتفهم قتلًا للوقت المتبقي قبل بداية العرض.

لم تنظر (تسليم) إلى أصدقائها أو تتحدث معهم مطلقًا منذ دخولها باب قاعة العرض، كما لو كانت قد انفصلت عنهم ذهنيًا وإن بقيت بقربهم جسديًا.

ارتفع منسوب تركيزها مع بداية عرض تنويهات الأفلام القادمة ثم وصل تركيزها إلى درجته القصوى مع بداية عرض الفيلم وحتى الاستراحة.

أمضت (تسليم) دقائق الاستراحة العشرة في مراقبة كل ما يحدث حولها، واسترقت السمع لحوارات رواد السينما وتعليقاتهم على الجزء الأول من الفيلم، ثم عندما بدأ عرض الجزء الثاني من الفيلم عادت مستويات اندماجها وتوحدها مع الفيلم إلى الارتفاع إلى درجاتها القصوى لتكمل رحلتها في معايشة أحداث الفيلم بشكل كامل حتى النهاية.

مع نهاية الفيلم وأحداثه وإضاءة أنوار قاعة العرض، أحست (تسليم) بشعور غريب لم تألفه من قبل ولم تعرف أبعاده، تساءلت في نفسها: هل هو شعور بالسعادة؟ أم شعور عادي نتج عن تجربة شيء جديد؟ أو ربما هو مزيج من الشعورين معًا؟

نظرت بجوارها كما لو كانت قد تذكرت فجأةً أنها جاءت هنا بصحبة أصدقائها وقالت لصديقتها: لقد كان الفيلم رائعًا، خيال علمي مبهر وقصة رائعة.

فقالت لها صديقتها وهي تبتسم: الآن فقط انتبهتِ أننا نجلس بجوارك! ثم ضحكت صديقتها وأضافت: يبدو أنك أعجبتِ بالفيلم لدرجة أنك قد نسيتينا تمامًا! عمومًا معك حق؛ فالفيلم رائع.

خرجت (تسليم) من قاعة العرض وهي تمشي ببطء شديد، ليس فقط نتيجةً للزحام ولكنها أيضًا كانت تتمنى لو أن العرض لم ينته وأن الفيلم استمر لفترة أطول، كانت وكأنها لا تريد الخروج من القاعة.

إلا أنها تحركت وسط أصدقائها حتى خرجت من باب قاعة العرض ثم سارت معهم في البهو حتى خرجت من باب السينما، وفور خروجها نظرت إلى الميدان فوجدته قد ازداد ازدحامًا عما كان عليه منذ ثلاث ساعات، اقترح أحد الأصدقاء أن يجلسوا في أحد المقاهي القريبة من السينما والمطلة أيضًا على نفس الميدان، وافقه الجميع في حين صمتت (تسليم).

مَثَّلَ لها اقتراح المقهى مفاجأةً جديدةً؛ فهي لم تجلس على مقهى من قبل، وكثيراً ما سمعت من والدها كلامًا سلبيًا في حق مَنْ يجلسون عليه؛ فقد كان يرى أن هواة الجلوس على المقاهي هم أولئك الذين يريدون تضييع أوقاتهم، لذلك لم توافق على اقتراح أصدقائها، في حين أن فضولها في تجربة هذا الفعل لأول مرة منعها من الاعتراض.

فهم أصدقاؤها صمتها على أنه موافقة ضمنية منها على اقتراحهم، وهكذا اتجهوا إلى أحد فروع سلسلة مقاهٍ شهيرة، ثم جلسوا على إحدى الطاولات القليلة غير المشغولة وكانت تقع تقريبًا في منتصف المقهى، نظرت (تسليم) إلى كل زوايا وأركان وحوائط المقهى ولم تترك تفصيلًا دون أن تدقق فيه وشمل ذلك الكراسي والطاولات بألوانها وترتيبها وكذلك لون الحوائط وقائمة الطعام والمشروبات وثلاجات عرض المخبوزات والحلويات بأنواعها.

وبعد أن طلب كل منهم ما يريد، استرقت (تسليم) النظر إلى جميع الجالسين في المقهى حيث دققت في حركاتهم وانفعالاتهم ونظراتهم وأيضًا ملابسهم وهواتفهم المحمولة، وأخذ مستوى تركيزها يزداد مع استراقها السمع لبعض الحوارات التي كانت تدور بين

الجالسين، وبعد عدة دقائق انفصلت ذهنيًا عن أصدقائها وانهمكت في متابعة ما يدور حولها في المقهى بكلتا عينيها وأذنيها، استمعت إلى حوار بين شاب وفتاة مخطوبين يتناقشان في كيفية تجهيز منزلهما المستقبلي وخلافاتهما المتعلقة ببعض الأمور المادية أو الذوقية، ثم استمعت إلى حوار آخر بين اثنين من الموظفين في إحدى الشركات العائلية وهما يشتكيان من سوء معاملة صاحب الشركة لهما وحجم العمل الكبير الملقى على عاتقيهما، ثم استمعت إلى حوار آخر بين اثنين من الأصدقاء وهما يتعاتبان نتيجة خلاف بينهما نتج عن سوء تفاهم في أحد المواقف التي تواجد بها أفراد من عائلتيهما، ثم استمعت إلى نقاش عالي الصوت بين اثنين من الشركاء يتجادلان بحدة لاختلافهما على كيفية إدارتهما لشركتهما.

بدا لها وكأن هذا العالم هو الصورة العكسية للعالم الذي رأته في السينما، فعالم السينما يمثل الخيال والأحلام وعالم المقهى يمثل الواقع والحقائق.

وعلى الرغم من أنها لاحظت مدى صعوبة وأحيانا قسوة الواقع الذي اقتربت منه كثيراً في عالم المقهى، إلا أنها اكتشفت أن إحساسها مع الوقت أصبح يماثل إحساسها داخل السينما عندما

انتهت من مشاهدة الفيلم، أدركت أن سعادتها بالمقهى كانت مناظرةً ومساويةً لسعادتها بالسينما، ومع بعض التفكير استنتجت أن السبب هو أنها لم تدخل السينما أو المقهى قبل ذلك وبالتالي كانت كلتا التجربتين جديدةً بالنسبة لها، لم تعتد عالم الخيال الجامح، وأيضا لم تألف عالم الواقع المحض؛ لأنها تعيش في عالم محدود ومحيط محدد وضيق لم تخرج عنه يومًا.

بعد مغادرتهم المقهى، سألت أحد الأصدقاء: كيف أذهب إلى منزلي من هنا؟

فقال لها صديقها: إن منزلك مقابل للميدان تمامًا.

قامت بتوديع بقية أصدقائها، ثم عبرت نهر الطريق مع ذلك الصديق الذي أجاب سؤالها، وبعد ذلك وجدته يشير بيده إلى شارع جانبي قائلاً: إن منزلك في نهاية هذا الشارع على بعد نحو مائة متر.

أصابتها معرفتها بمدى قرب هذا الميدان من بيتها بحالة من الدهشة والمفاجأة، فهي وإن توقعت أن تكون قريبةً من منزلها إلا أنها لم تتوقع أن تكون بهذا القرب، وقبل أن تترك صديقها متجهةً إلى منزلها سألته: ما اسم هذا الميدان؟

فأجابها: ميدان الحياة.

تذكرت (تسليم) كل تلك الأحداث، كما تذكرت ما قالته لنفسها يومها وهي تسير في ذلك الشارع الجانبي عائدةً إلى منزلها، وهو قول سار ت عليه لاحقًا في حياتها حتى الآن: إن ميدان الحياة رائع ومدهش إلا أنني أخاف كثيراً أن آتي إليه مرةً أخرى؛ فهو شديد الازدحام ومليء إما بخيال جامح أو واقع قاس.

obeikandl.com

ميلاد ورحيل

استيقظت (منى) من نومها نحو التاسعة صباحًا في ثاني أيامها في المستشفى، حيث إنها ا وصلت بالأمس بناءً على نصيحة من طبيبها، فقد طلب منها الذهاب مبكرًا يومًا واحدًا عن ميعاد ولادتها المتوقع تحسبًا لأي تطور مفاجئ؛ خاصة أنها عانت من بعض الصعوبات في حملها.

بعد أن أجرى الطبيب عدة فحوصات وتفقد جدول غرف العمليات، أخبرها بأن طاقم التمريض سيجهزها للدخول إلى غرفة العمليات في تمام الثالثة عصرًا، فشكرته (منى) وأخذت تستعد - ذهنيًا- لفكرة الولادة وأنها ستصبح أمًا بعد بضع ساعات.

في الواقع، لقد كانت تجهز نفسها لهذا اليوم منذ أن عرفت بأمر حملها بل منذ أن تزوجت، وربما يكون قبل ذلك بفترة أي منذ أن فكرت أول مرة في موضوع الارتباط والزواج. وبعد لمحة من تفكير

نظرت عن طريقها من شباك ذكرياتها إلى الماضي، أدركت أنها تفكر في هذا اليوم منذ أن عرفت أنها أنثى، ومنذ أن بدأ مجتمعها الشرقي يلقي عليها بشباك مفاهيمه عن المرأة وطبيعة حياتها المفترضة ووظيفتها المقدرة لها في هذه الدنيا.

بعد نحو نصف ساعة، شاهدت إحدى صديقاتها وهي تصل لزيارتها ولملازمتها في هذا اليوم المميز، رَحّبَت (منى) بصديقتها وشكرتها على قدومها، فقالت لها صديقتها: هذا أقل واجب بين صديقتين تعرفان بعضهما منذ الطفولة.

فقالت لها (منى): إن متاعب الحمل وآلام ما قبل الولادة مزعجة للغاية.

فردت صديقتها: هذا هو الثمن الذي ندفعه لنصبح أمهات.

فعقبت (منى): نعم معك حق. ثم أضافت وكأنها تترقب ما هي مقبلة عليه: لقد علمت من الكثيرات أن آلام الوضع تفوق ما سبق، لذلك سعدت جدًا عندما قرر الطبيب أن ألد قيصريًا وليس طبيعيًا، ولكنني علمت أيضًا أن السعادة برؤية طفلي سوف تمحو عني كل هذه الآلام والمتاعب.

فقالت لها صديقتها: هذا بالضبط ما أخبرتني به والدتي وطلبت مني أن أنقله إليكِ، إن رؤية طفلك بعد الولادة هي خطوة ستنقلك من أحاسيس إلى أحاسيس ومن مرحلة إلى مرحلة ومن حياة إلى حياة، إن تربية طفلك ورعايتك له هي رسالتك في هذه الدنيا.

فعَقَّبَت (منى) بعد أن زاغ بصرها وكأنها تنظر إلى شيء ما غير موجود: نعم. ثم صمتت!

راحت (منى) تستعيد الخطوط العريضة لطفولتها ومراهقتها، كما تخيلت طفلتها القادمة إلى هذه الدنيا، عندها تمنت أن تحظى طفلتها بحياة وطفولة ومراهقة أفضل من تلك التي حظيت بها (منى) في سنوات عمرها السابقة.

ثم سألت (منى) صديقتها: هل تتذكرين بداية تعارفنا؟

فأجابت صديقتها: نعم، لقد كنا في الصف الأول الإعدادي، وكان عمرنا -في ذلك الوقت- اثني عشر عامًا تقريبًا.

(منى): بالضبط، وهي فترة آخر عهدنا ببراءة الطفولة وبداية عهدنا بمتاعب المراهقة ومحاذيرها ومحظوراتها، لقد كان ذلك قبل انتقالنا جسديًّا إلى عالم المرأة بأشهر قليلة. ثم زاغ بصرها للحظات قبل أن

تستأنف حديثها: سأسألك عن رأيك بما أننا نعرف بعضنا منذ سنوات: هل تعتقدين أنني سأتمكن من أن أوفر لابنتي حياةً أفضل من حياتي؟ وتعليمًا أفضل من تعليمي؟ وظروفًا أفضل من ظروفي؟

فأجابت صديقتها: هذا شيء في علم الغيب، ولكنني متأكدة بأنك ستحبينها، وستكون كل حياتك، ومتأكدة من أنك ستحاولين إسعادها بقدر استطاعتك.

فقالت لها (منى): نعم، سأحاول بقدر استطاعتي. ثم صمتت قليلًا وبعدها سألت صديقتها: هل تتذكرين ما كنت أكتبه على سبورة الفصل في سنوات دراستنا الإعدادية؟

فأجابت صديقتها: نعم بالتأكيد، فقد كنتِ دائمًا تكتبين: "الدكتورة منى"، وكثيراً ما كنت ترسمين مستشفى وتكتبين أسفله: "مستشفى الدكتورة منى".

فعقبت (منى) بشيء من الحسرة: أتمنى أن تعود تلك الأيام، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، لقد كان حلم حياتي أن أصبح طبيبةً ولكنني فشلت في تحقيقه.

فقالت صديقتها: لا داعي لهذه الحسرة؛ فقد تخرجت في كلية جيدة.

فعقبت (منى): نعم لقد كانت كُلِّيَّةً جيدةً، ولكنها ليست ما تمنيته، لا زال رفض والدي أن ألتحق بكلية الطب يصيبني بالمرارة كلما تذكرته.

فقالت صديقتها: لقد كان له وجهة نظر جديرة بالاحترام، فقد كان والدك يرى أن دراسة الطب تستغرق نحو سبع سنوات وكان لا يرى داعيًا لذلك، فوالدك طالما آمن بأن مكان المرأة الطبيعي هو بيتها ودورها الرئيس هو رعاية أسرتها، ووظيفتها الحقيقية هي خدمة زوجها وبيتها.

(منى): نعم، فهو طالما رأى أن تعليم المرأة يهدف في النهاية إلى تثقيفها فقط لتتمكن من رعاية أسرتها بشكل أفضل، وبأن عمل المرأة يهدف فقط إلى أن تتعرف على الدنيا بشكل يسمح لها بخدمة بيتها وعائلتها بشكل أكثر ارتباطًا بالواقع. ثم أردفت ببعض التهكم: وكأنني أتعلم لمدة اثني عشر عامًا حتى الثانوية العامة ثم أربعة أعوام في الجامعة فقط لخدمة زوج لم أره وأطفال لم أنجبهم بعد، وكأنني لست روحًا لها تطلعات وعقلًا له طموحات وجسدًا له احتياجات، وكأنني شيء ناقص لا يكتمل إلا بزوج وأولاد، وحتى إن جاء الزوج والأولاد فإنني سأظل شيئًا ناقصًا بحيث لا بد أن أرعاهم وأخدمهم لأستحق الحياة!

ثم استرسلت (منى): هل تعلمين أنني التحقت بقسم الكيمياء في كلية العلوم فقط لكي أتمكن من الالتحاق بأحد أقسام الدراسات العليا المتعلقة بالجانب الطبي، ولقد فكرت في دراسة الكيمياء الحيوية في مرحلة الدراسات العليا لأبقى قريبةً من المجال الذي حلمت دائمًا بالتواجد فيه، لكن والدي رفض أن أكمل دراساتي العليا بعد تخرجي بحجة أنها مجهود لا لزوم له!

أنصتت لها صديقتها ثم قالت لها: هذا هو تفكير الكثير من الرجال في مجتمعاتنا الشرقية ولا بد أن تتفهمي وجهة نظر والدك، فهو لا يكن لكِ سوى الحب ويتمنى لك الأفضل دائمًا في الدنيا والآخرة.

فتساءلت (منى) بشيء من الاعتراض: ولكن من الذي من حقه أن يحدد ما هو الأفضل لي؟ ثم أضافت ببعض اللامبالاة: عمومًا لقد انقضت تلك الأيام وأصبحت من الماضي.

فعقبت صديقتها: في مجتمعاتنا الشرقية، الأب دائمًا هو من يحدد ما هو الأفضل للأولاد، وهذا ما سيحدث بالضبط مع ابنتك، فوالدها هو الذي سيحدد لها خطط تعليمها ومستقبلها.

نظرت (منى) من خلف زجاج شباك غرفتها في المستشفى، نظرت إلى مياه نهر النيل وهي تتحرك ببطء في مسارها المحدد لها سلفًا منذ مئات وآلاف السنين، ثم قالت: نعم، يبدو وكأن ذلك ما سيحدث ولكنني أتمنى أن يكون أكثر تفهمًا.

فعلقت صديقتها: ربما يكون أكثر تفهمًا ولكن لا تنسي أنه وُلِد وعاش عمره كله في نفس مدينتنا ولم يذهب إلى (القاهرة) أو (الإسكندرية) إلا في زيارات سريعة، وبالتالي سيكون له نفس طباعنا وأخلاقنا وتفكيرنا المحافظ، فنحن هنا في (المنصورة) وفي منطقة (الدلتا) عمومًا أكثر تحفظًا يا (منى).

فقالت (منى): ليس بالضرورة، فقد عشت أنا أيضًا سنوات عمري الثلاثين كلها هنا ولكن لدي آراء أخرى، كل ما أتمناه وأحلم به هو أن يكون زوجي مع ابنتي أكثر تفهمًا ممّا كان عليه أبي معي.

فسألتها صديقتها: هل لا زلت تحلمين يا (منى)؟

فأجابت (منى): نعم، كثيراً ما أحلم.

فعاودت صديقتها سؤالها: هل تحلمين بنفس أحلامك القديمة؟

فأجابت مبتسمة: نعم، هي وغيرها.

فسألتها صديقتها مرةً أخرى: وما هي أحلامك الآن يا (منى)؟

فأجابت (منى) -بعد أن اعتدلت وعدلت من وضعية جلستها ليصبح ظهرها عموديًّا على السرير- : أحلم بأنني سأتمكن يومًا من البدء في دراساتي العليا في قسم الكيمياء الحيوية؛ وذلك لأصبح قريبةً من المجال الذي طالما تمنيته، أحلم بأن أتمكن يومًا من السفر حول العالم ومشاهدة الثقافات والحضارات والعادات والبلاد الأخرى، ثم ضحكت وقالت بتهكم: أحلم بأن يسمح لي زوجي بأن أستمر في وظيفتي بعد إجازة الوضع.

فقالت لها صديقتها: هل يريد منك زوجك أن تتخلي عن وظيفتك وأن تصبحي ربة منزل؟

فأجابت (منى): نعم، لقد اشترط عَ لَيّ عند بداية زواجنا منذ عامين أن أترك وظيفتي كمدرسة للأحياء فور إنجابي أول أطفالنا، ناهيك عن أنه لم يشجعني على البدء في الدراسات العليا، حيث إن رأيه مثل رأي والدي!

فتساءلت صديقتها بحسرة: ألا يكفي خدمتك لأبيك وأمك وإخوانك ثم زوجك بعد ذلك؟! ثم أضافت: إن خدمتك لهم جميعًا قد استهلكت وقتك ومنعتك من ممارسة أية هواية أو نشاط، وأيضًا ألا يكفي أنهم لم يسمحوا لك بالبدء في دراساتك العليا؟! والآن يأتي زوجك ليحرمك ليس فقط من التفكير في الدراسات العليا ولكن من الوظيفة أيضًا، فعلًا الحياة ليست عادلةً! ثم أضافت بصوت منخفض: ولكن لا بد لكِ من طاعة زوجك، فهذه هي موروثاتنا الثقافية والاجتماعية.

فقالت (منى): معك حق.. الحياة ليست عادلةً على الإطلاق. ثم أضافت بعد لحظات من الصمت: لطالما حلمت بأن يكون لي شخصية مستقلة وكيان مستقل وقرار مستقل وحياة مستقلة و...

وفجأة قطع حوارَها صوتُ إحدى الممرضات: سوف نقوم بتجهيزك الآن استعدادًا للدخول إلى غرفة العمليات.

وبعد عدة دقائق وصل طبيبها المعالج، وبعد فحص سريع، أخبرها بأن موعدها قد حان وأنها جاهزة للدخول لغرفة العمليات ليقوم بتوليدها.

فقالت (منى): يبدو أنها اللحظة المنتظرة!

فابتسم الطبيب وانصرف في اتجاه غرفة العمليات.

نظرت (منى) حولها وإذا بالغرفة خاليةً تمامًا، تعجبت (منى)، فقد كانت تتكلم مع صديقتها لفترة تجاوزت الثلاث ساعات! حملها الممرضات ووضعنها على سرير متحرك ثم دفعنه إلى غرفة العمليات.

وبعد فترة من الوقت أمضتها في غرفة العمليات تحت تأثير المخدر النصفي، شاهدت (منى) إحدى الممرضات تقترب منها حاملةً طفلتها الصغيرة، ابتسمت دون أن تتمكن من حملها إلا أن الممرضة قربت طفلتها منها حتى لامستها، نظرت إليها قليلًا ثم نظرت بعيدًا وشرد ذهنها في أحلام جديدة ومتجددة، لها بداية وليس لها نهاية، ولكنها هذه المرة عن ابنتها وليست عنها.

بعد نحو نصف ساعة بدأ ينحسر مفعول المخدر النصفي وعلى إثر ذلك بدأت تحس بآلام الوضع وما بعده، ابتعدت عنها أحلامها وطموحاتها بمقدار ما أثرت فيها تلك الآلام، وفي مقابل ذلك لازمتها أحلام وطموحات كثيرة عن ابنتها، يبدو أنها وجدت في ابنتها

فرصةً ومتنفسًا لأحلام جديدة بعيدًا عن واقعها! ولكنها تساءلت في نفس اللحظة: أين ذهبت أحلامي؟! أين ذهبت طموحاتي التي كنت أسردها لصديقتي قبل دخولي غرفة العمليات للولادة؟!

لم تجد إجابةً عن سؤالها، إذ يبدو أن ميلاد ابنتها قد أدَّى إلى رحيل أحلامها! بدا وكأن أحلامها هربت منها، حاولت استرجاع تلك الأحلام ولكن دون جدوى، حاولت خلق أحلام جديدة إلا أنها مع الوقت أدركت أن كل أحلامها الجديدة تكون عن ابنتها لا عنها.

ومع مرور الوقت بدأت تستسلم للوضع الجديد، فعلى الرغم من أن تفاصيل حياتها استمرت كما كانت قبل الإنجاب مُسَخَّرَةً تمامًا لأسرتها مهما كان عدد أفرادها، إلا أنه بعد الإنجاب استجد وضع جديد، وهو أن أحلامها ذاتها هربت منها وذهبت إلى ابنتها.

لم تعترض بشكل جدي على ذلك، ويومًا بعد يوم خضعت ذهنيًا لموروثاتها الثقافية وأقنعت نفسها بأنها تحب ذلك الوضع، ولكنها في داخلها كانت تعلم تمامًا بأنها ستندم يومًا ما على استسلامها لما هي فيه.

obeikandl.com

المطار

في تمام الساعة الثانية ظهرًا دخل (آدم) إلى مطار (القاهرة) الدولي، وصل مبكرًا ثلاث ساعات عن موعد إقلاع طائرته المغادرة إلى (لندن)، أنهى إجراءاته سريعًا من خلال بوابات الصالة المخصصة لدرجة رجال الأعمال ثم اتجه إلى قاعة الانتظار الملحقة بالصالة.

وفور دخوله القاعة اتجه إلى أحد المقاعد الغير مشغولة في أقصى أركان القاعة ثم جلس عليه، لم يهتم بمن حوله من الحضور؛ فقد حرص على الابتعاد عنهم قدر الإمكان، لم يبالِ بالمأكولات والمشروبات المتاحة لرواد الصالة من المسافرين وذلك باستثناء تفاحة واحدة التقطها من الركن المخصص للفاكهة ثم قطعها نصفين بسكينة حادة وأكلها بهدوء، بعدها كان حريصًا على أن يفتح حاسبه الشخصي المحمول (اللابتوب) ويتصل بشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) ليتابع آخر أخبار البورصة في (القاهرة) و(لندن)، كما كان حريصًا على

تفقد هاتفه المحمول ليتأكد من أنه قرأ جميع الرسائل التي وصلته وأنه قام بالرد على جميع المكالمات التي جاءته.

أخذ يتنقل من هاتفه إلى حاسبه الشخصي، ومن موقع إلكتروني خاص بالأخبار الاقتصادية في مصر والشرق الأوسط إلى آخر خاص بالأخبار الاقتصادية حول العالم، ومن شاشة التداول في البورصة المصرية إلى تلك الخاصة ببورصة (لندن)، واستمر على هذه الحال ساعتين كاملتين لم يغادر أثناءهما كرسيه إلا مرة واحدة ولدقائق معدودة، وذلك ليجلب تفاحته التي كان يأكلها على مهل وهو يتنقل بين متابعة كل من الأخبار وحركة التداول وأيضًا إجراء المكالمات وإرسال رسائل البريد الإلكتروني والرسائل النصية.

لم يخرج من هذه الحالة من الانهماك إلا عندما سمع صوت الإذاعة الداخلية في القاعة تعلن عن النداء الأخير للطائرة المتجهة إلى (لندن)، عندها أغلق حاسبه الشخصي ووضعه في الحقيبة الخاصة به ثم ارتدى معطفه وأنهى المكالمة التي كان يجريها من محموله، بعدها تحرك قاصدًا البوابة الخاصة برحلته، وبعد عدة دقائق كان على متن الطائرة.

أحس براحة كبيرة فور صعوده إلى الطائرة واكتملت تلك الراحة بجلوسه على مقعده، كان كأنما يهرب من شيء ما، كان كأنه محبوس في قفص ثم مثلت له الطائرة باب القفص الذي سيفتح ليمكنه من الهروب والتحليق بعيدًا.

لاحظ نظرات بعض الجالسين حوله، أحس أنهم ينظرون إليه بشيء من الاستغراب كما لو أن مشاعره وأحاسيسه ظهرت على ملامح وجهه وانطبعت على نظراته وانفعالاته.

كانت طبيعة عمله تتطلب منه قضاء نصف وقته في (لندن) والنصف الآخر في (القاهرة)، وعليه كان يُقَسِّم وقته بحيث يمضي أسبوعين في (القاهرة)، ثم أسبوعين في (لندن)، وبحسبة بسيطة فإنه كان يسافر مرتين شهريًا، أي إنه يمضي أربعةً وعشرين يومًا في مطاري (القاهرة) و(هيثرو) كل عام.

بالنسبة له كانت تلك الأيام الأربعة والعشرون أكثر من مجرد جسر يربط بين حياتيه في المدينتين ، وإنما كانت حياةً كاملةً مستقلةً بذاتها تعطيه مساحةً هائلةً من الراحة والسلام الداخلي.

تعجب كيف جزأت الدنيا سنوات عمره الأربعين بشكل غريب، فقد ولد في (القاهرة) لأب مصري وأم بريطانية، ثم أمضى سنوات طفولته في (القاهرة) حيث عاش فيها اثني عشر عامًا إلى أن أنهى السنوات الستة الأولى من تعليمه، ثم غادر بعدها إلى (لندن) ليكمل فيها السنوات الستة التالية ويحصل منها على شهادة الثانوية العامة، بعد ذلك عاد إلى مصر ليدرس الهندسة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ثم بعد أن فرغ من دراسته الجامعية انتقل إلى (لندن) ليعمل مهندسًا في شركة مقاولات يملكها خاله. وبعد خمس سنوات مرض والده، الذي كان وقتها يعيش في (القاهرة)، فاضطر إلى العودة إلى مصر ليدير شركة المقاولات الخاصة بوالده إلى أن ورثها بعد ذلك بعامين عندما توفي والده، وفي نفس ذلك العام توفي خاله وورث بالتالي شركة المقاولات الكائنة في (لندن).

وهكذا اضطر في السنوات الأخيرة أن يقسم حياته بين (القاهرة) و(لندن)، كان يعيش حياتين مستقلتين بكامل حذافيرهما، وصقلته تلك الظروف بحيث بات يجمع في شخصيته خليطًا من خصائص وطباع مصرية وبريطانية جعلته مزيجًا يستطيع التعامل مع الكثيرين، وجعلته أيضا باحثًا دائمًا عن التميز والتفوق.

قطعت السيدة الجالسة على المقعد المجاور حبل ذكرياته عندما سألته: هذه أول مرة أسافر إلى (لندن)، من فضلك هل تعلم كم ستستغرق الرحلة؟

فأجابها: نحو خمس ساعات.

فقالت: ستكون هذه فرصةً جيدةً للنوم!

ابتسم لها ولم يعلق وإن كان قد أعجبه كلامها، فهو لم يكن يرغب في مواصلة الحديث معها.

بعد دقائق أقلعت الطائرة متجهةً إلى (لندن) وحلق معها طائر ذكرياته، حلق إلى الماضى البعيد حيث تذكر أحداث انفصال أبويه، وقتها كان جالسًا يشاهد أحد البرامج في التلفاز ويأكل بعض الفاكهة عندما دخل عليه والده ووالدته وأخبراه بأنهما اتفقا على الانفصال، عندها أصيب بصدمة ولم يستطع النطق بكلمة واحدة، ثم أخبراه أنهما اتفقا أيضًا على أنه من الأفضل له أن يسافر مع والدته إلى (لندن)، حيث ظروف الحياة بشكل عام وفرص التعليم بشكل خاص أفضل وأكثر تنوعًا وأوسع أفقًا.

تذكر إحساسه ذلك الوقت وهو يترك أصدقاءه وزملاء الدراسة ورفقاء التدريب في النادي وأعمامه وعماته وأبناء عمومته وأيضًا جده وجدته، والأهم يترك والده وينتقل برفقة والدته إلى (لندن).

تألم كثيراً وقتها لابتعاده عن أبيه حيث كان صديقه الأقرب ومثله الأعلى، كما تألم لفراق كل من أحبهم وتعلق بهم منهم من أهل والده وكذلك أصدقائه وزملائه من الدراسة والنادي وجيرانه في الحي الراقي الذي كان يقطن فيه، كان ألم الفراق كبيراً فقد ترك تقريبا كل من يعرفهم أي إنه ترك حياته كلها على محدوديتها في ذلك العمر الصغير.

استعاد بذاكرته رحلة سفره وقتها من (القاهرة) إلى (لندن)، كان يجلس بجوار والدته في الطائرة وهو شديد التوتر رافضًا أن يأكل أو يشرب، وقتها تفهمت والدته أسباب غضبه وتوتره ولم تضغط عليه، ومن فرط توتره ومله أمسك إحدى المجلات التي جلبتها والدته معها وتصفحها، وجد بها مقالًا عن فوائد التفاح وأهمية تناول تفاحة واحدة على الأقل بشكل يومي، قرأ المقال سريعًا ثم إذا به يجد ثمرة تفاح مقدمة كجزء من الوجبة التي تم توزيعها على ركاب درجة

رجال الأعمال، أمسك التفاحة وشقها نصفين باستخدام السكين الموزعة مع الوجبة، ثم أكلها بهدوء.

انتهت جولته عبر الذكريات عندما اكتمل إقلاع الطائرة واستقرت في الارتفاع الذي ستواصل التحليق عليه في رحلتها، انطفأت الأنوار الخاصة بربط حزام الأمان، وإذا بالسيدة الجالسة بجانبه قد أغمضت عينيها وبدا وكأنها استسلمت للنوم، وبعد عدة دقائق بدأت المضيفات في القيام بأعمالهن الروتينية على الطائرة من تقديم المياه والعصائر والشاي والقهوة وخلافه إلى المسافرين.

ترك كل هذا وعاد بذهنه ليكمل التحليق مع طائر ذكرياته في سنواته الأولى في (لندن) بعد انتقاله إليها، تذكر معاناته في المدرسة نتيجة اختلافه ثقافيًا عن كثير من أقرانه، وتذكر افتقاده الكبير لوالده الذي لم يكن يراه سوى شهر واحد كل عام، وكذلك افتقاده لأصدقاء الطفولة وللبلد الذي أمضى فيه طفولته، استغرقه الأمر طويلًا حتى اعتاد حياته الجديدة وبدأ يتأقلم معها، وإن كان قد لازمه إحساس دائم بأن شيئًا ما ينقصه، وبأن هناك جزءًا مفقودًا من حياته وربما شخصيته.

أمضى في (لندن) ست سنوات، وبعد أن أنهى دراسته الثانوية قررت والدته الانتقال إلى الولايات المتحدة مع زوجها. كانت والدته قد تزوجت منذ عامين من خبير تسويق أمريكي يعمل في (لندن) وقد قررت الشركة الأمريكية التي يعمل بها نقله إلى المركز الرئيس في (بوسطن).

رفض (آدم) الانتقال إلى الولايات المتحدة، وعندئذ تدخل والده واتفق الجميع على أن يعود (آدم) إلى مصر لاستكمال دراسته الجامعية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

أعجبته الفكرة للوهلة الأولى، فقد وجدها فرصةً للعودة إلى البلد الذي أمضى فيه سنوات طفولته، والأهم أنها فرصة ليجدد ما قل من تواصل مع والده وأقاربه من ناحية الوالد.

ولكن الواقع لا يأتي بالضرورة كما نتمنى ، فقد وجد صعوبةً في التعامل مع والده، فقد اعتاد عدم وجود رجل يتحكم في حياته أو يتدخل فيها، فزوج أمه كان يترك مسافةً عند التعامل معه تجنباً للاحتكاك والحساسيات، بالإضافة إلى أن أصدقاء الطفولة تغيروا عما كانوا عليه واختلفت طبائعهم وتصرفاتهم بل وحتى هيئاتهم! وأيضًا تغيرت ظروف البلد فأصبح يعاني كثيراً من صعوبات المرور ومن تلوث

الجو، وكذا من صعوبة الإجراءات اللازمة لإنهاء أية معاملة مع أية جهة حكومية.

وبدأ يفتقد حياته في (لندن) ويفتقد والدته التي اعتاد العيش معها سنوات عمره الثمانية عشرة، لم يحس بالارتياح في حياته الجديدة في (القاهرة)، أحس بأن شيئًا ما ينقصه، كما أحس بأنه ليس في المكان المفترض أن يكون فيه.

في وسط كل هذا ارتبط بقصة حب مع زميلة له في كلية الهندسة بالجامعة، كانت بمثابة الملجأ العاطفي له، كان ينسى كل شيء عندما يتواجد معها، كانت تنسيه أسئلته الدائمة: هل أنا مصري أم بريطاني؟ هل أنا مسلم كوالدي أم مسيحي كوالدتي؟ هل مكاني الطبيعي هو (القاهرة) أم (لندن)؟ كان معها يحس أنه (آدم) وفقط، (آدم) وكفى، كانت تجعله يشعر بأنه واحد مكتمل وليس نصفًا تاه منه نصفه الآخر.

تقبلته كما هو مما ساعده على تقبل نفسه، ومنحه هذا السلام الداخلي فرصةً ليختار بهدوء أن يكون قاهريًا، فقد مالت كفة صراعاته الداخلية تجاه اختيار (القاهرة) بأسلوب حياتها لتكون منزله النهائي ووطنه المختار.

بعد أن أنهيا سنوات دراستهما الجامعية الخمس، اتفقا على أن يتقدم لخطبتها بشكل رسمي، وافق والده وأيدته والدته ووجد كل الدعم من الجميع، ولكن لأن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفن، ولأن الحياة أحيانًا تعطينا دروسًا قاسيةً ربما نحتاج إلى سنوات لفهمها، فقد حدث ما هو غير متوقع.

بعد أن رتبا كل الأمور والإجراءات بشكل ودي، وقبل موعد زيارته الرسمية مع عائلته بيومين، كانت حبيبته ذاهبةً لتسلم الفستان الذي ستحضر به حفل خطبتها، وإذا بسيارة نقل مسرعة تتجاوز كل الإشارات وتحطم كل الأحلام وتدهسها أثناء عبورها الشارع، أنهى الحادث حياتها وحياة قصة حبهما وأرسل (آدم) مرةً أخرى إلى منطقة التيه، ولكن في هذه المرة لم يعد يحس بأنه نصف يبحث عن نصف آخر ضائع، وإنما أصبح نصفًا لا يبحث عن شيء ولا يهدف إلى شيء ولا يريد أي شيء.

لم يستطع البقاء في (مصر) بعد الحادث، فقد كان يرى طيف حبيبته في كل مكان ذهبا إليه معًا، هرب من (مصر) ومن ذكرى حبيبته وسافر إلى (لندن) ليعمل مع خاله في شركة المقاولات التي يملكها الأخير.

ومثل كل مرحلة من حياته، استغرقه الأمر فترةً حتى يتأقلم مع وضعه الجديد، افتقد من ليسوا معه ووجد أن من أصبح معهم قد تغيروا كثيراً عما كان يعرفهم.

وبعد أربع سنوات تعرف على زميلة جديدة انضمت إلى شركة خاله، وبعد أن بدا وكأن تجربته السابقة قد أغلقت أبواب مشاعره وأحاسيسه، وجد أن قلبه بدأ يخفق من جديد، وعادت إليه أحاسيس كان قد اعتقد أنها تركته بلا رجعة، عاش قصة حب جديدة، ربما أكثر عمقًا من سابقتها؛ وذلك بحكم أنه أصبح أكثر نضجًا، أو ربما لأنه أراد لاشعوريًا أن يكون هذا الحب مزدوجًا؛ حب لحبيبته الجديدة وفي نفس الوقت تعويضًا عن حبيبته السابقة.

أعطته حبيبته ا لجديدة أملًا في غد أكثر إشراقًا، وجسراً يعبره ليتمكن من الاندماج الكامل في حياته اللندنية، كما أعطته سببًا منطقيًا وعقلانيًا ورومانسيًا وروحيًا لكي تميل كفة صراعاته الداخلية نحو اختيار (لندن) ونمط حياتها لتكون بلده.

تدريجيًا بدأ يحس مرةً أخرى بأنه واحد صحيح، أحس بأنه لم يعد يحتاج أن يُعَرِّف نفسَه لنفسه مرةً أخرى، وعاد إليه الإحساس بأنه كامل لا يبحث عن جزء مقتطع منه.

وبعد مرور عام كامل من بداية تعارفهما، كانا قد اتفقا على كل شيء يتعلق بتفاصيل ارتباطهما، وقبل أسبوع من حفل الزفاف، أبت الدنيا إلا أن تقذف به في غياهب تجربة جديدة من الحزن وضياع الأمل، حادث آخر اختطف حبيبته من الدنيا وأرسلها إلى السماء، حادث آخر حَطَّمَ ما بقي له من أمل وهو في نحو الثامنة والعشرين من عمره.

وفور أن وصل الخبر إلى والده أصيب بأزمة قلبية، فقد تألم لانكسار قلب ابنه وضياع حلمه لا مرة الثانية، وبعدها لم يعد قادرًا على العمل بشكل مستمر، وهكذا اضطر (آدم) أن يعود إلى (القاهرة) ليدير شركة والده.

وبعد ذلك بعامين توفي والده ثم خاله، ورث شركة والده كما كان الوريث الوحيد لخاله وفقًا لوصية الأخير، فأصبح يعيش متنقلًا بين (القاهرة) و(لندن).

ومع مرور الوقت لم يعد يفهم ما تنتابه من أحاسيس تجاه المدينتين، فهو يحب (القاهرة) ولكنه لا يرتاح فيها ويحب (لندن) ولا يرتاح فيها أيضًا، يبتعد عن (القاهرة) لكي لا يتذكر حبيبته الأولى ويهرب من (لندن) لكي لا يتذكر حبيبته الثانية.

ومع مرور الأيام وكثرة السفر لم يعد يرتاح إلا في المطارات، فعندما يكون في أي مطار فهو في الواقع ليس في أية مدينة، وبالتالي ليس عليه الابتعاد عنها لكي لا يتذكر من فقد فيها، وأيضًا ليس عليه الهروب من أحلامه وخياراته فيها، تلك الأحلام التي هربت من بين يديه ولكنها لا تزال تقبع في ثنايا نفسه، وتلك الخيارات التي لا زالت كامنةً بمتناقضاتها داخل خبايا عقله.

وبعد فترة، استيقظت الراكبة التي تجلس بجانبه وسألته: هل مازال أمامنا الكثير من الوقت لنصل إلى (لندن)؟

فأجابها باقتضاب: نعم.

فقالت له فيما بدا وكأنها تحاول أن تبدأ حوارًا تكسر به حدة وحدتها وطول الرحلة: لقد رأيتك في صالة درجة رجال الأعمال وأنت منهمك في النظر إلى شاشة البورصة، هل تستثمر في بورصة (القاهرة) أم (لندن)؟

فأجابها مبتسمًا: في الواقع أنا لا أستثمر في أي منهما، وإن كان لدي حساب استثمار افتراضي وهمي في كليهما، فقد تعبت من الاستثمارات الحقيقية!

obeikandl.com

دنيا

وضعت رأسها على الوسادة، وألقت بجسدها المتعب على السرير، أرادت أن ترتاح من عناء يوم طويل مرهِق كسائر أيام حياتها وبالذات في السنوات الأخيرة.

أخذت تتذكر كيف أمضت يومها، اتضح أنه نسخة مكررة لسائر أيام حياتها منذ تزوجت، حيث مضى يومها ما بين عملها في شركة زوجها الصغيرة، ثم القيام بواجباتها المنزلية اليومية التي لا تكاد تنتهي من طهو وتنظيف وترتيب للمنزل، وكذلك العناية بأولادها الثلاثة ومتابعة واجباتهم المدرسية، كما تذكرت أيضًا كيف تقوم من آنٍ لآخر بالكثير من الزيارات العائلية المملة لأقارب من عائلتها أو من عائلة زوجها، وإضافةً إلى كل ذلك فإن عليها أن تفي باحتياجات ومتطلبات زوجها المتعلقة بغريزته والتي يطالبها بها بشكل شبه يومي، تذكرت كل ذلك وأحست ببعض المرارة من أنها لا تكاد تجد وقتًا لنفسها على الإطلاق.

إلا أنها -بعد أن أنهت رحلة ذكرياتها- قالت في نفسها: إن عملي في شركة الحاسب الآلي الصغيرة الخاصة بزوجي يحقق لي نوعًا من تحقيق الذات ولو صُوريًّا، وفي نفس الوقت يوفر لزوجي المرتب الذي كان سيدفعه إذا ما قام بتعيين موظف أو موظفة أخرى، والقيام بالواجبات المنزلية ورعاية زوجي وأولادي بطلباتهم المتنوعة والكثيرة هو جزء أساسي من رسالتي في الحياة، كما أن رجال الدين أخبروني أن إشباع غريزة زوجي تعتبر مهمةً شبه مقدسة، مهما كان الأسلوب السخيف والفج الذي يتبعه سواءَ عند المطالبة بتلك الاحتياجات أو عند القيام بها.

وبعد أن قالت لنفسها تلك الجملة الأخيرة أحست ببعض الامتعاض؛ حيث إنها كانت قد أجابت طلب زوجها في تلك الليلة، وبعد ذلك بعدة دقائق استسلمت للنوم.

كان استسلامها للنوم مناظرًا لاستسلامها للنمط الذي تسير عليه حياتها. في النهاية كانت (دنيا) قد اعتادت حياتها وهي تمضي على هذه الوتيرة منذ زواجها قبل عشرين عامًا، وكونها تعيش في مدينة (الإسماعيلية) الهادئة والصغيرة نسبيًا قد أعطاها نوعًا من الاقتناع بهذا النمط من الحياة، فأغلب أهل المدينة يعملون في

وظائف حكومية أو شركات قطاع خاص صغيرة، وبالتالي ينخفض مستوى الطموح الوظيفي ويصبح أكثر هدوءاً وأقل حدةً وتنافسيةً، ثم إن المدينة تكاد تخلو من حياة الليل، إلا ما اعتاده الرجال من السهر على المقاهي وما يصحبه من حوارات أو مشاهدة لبعض المباريات أو الأفلام أو البرامج الحوارية، عدا ذلك يبقى الرجال في بيوتهم مع زوجاتهم وأولادهم.

في السادسة من صباح اليوم التالي استيقظت كعادتها دائمًا وبدون الحاجة إلى منبه، تحركت ببطء لكي لا توقظ زوجها، ثم ابتدأت (دنيا) يومها بالنظر من خلف زجاج شباك غرفتها إلى قناة السويس، حيث شاهدت إحدى السفن العملاقة تتحرك ببطء شديد في المجرى الملاحي متجهةً من الجنوب إلى الشمال، تابعتها بعينيها لدقيقتين أو ثلاث، ثم توجهت بعد ذلك إلى غرفة الأولاد، وقبل أن تفتح الباب لتدخل الغرفة انتبهت إلى أن اليوم هو إجازة رسمية! سألت نفسها: كيف لم أنتبه أن اليوم هو السادس من أكتوبر؟ ثم أجابت: يبدو أنه الروتين اليومي والاعتياد. عادت إلى السرير بهدوء وحاولت النوم مرةً أخرى إلا أن محاولاتها باءت بالفشل، تركت السرير مرةً أخرى واتجهت إلى المطبخ وأعدت لنفسها فطوراً سريعًا ثم جلست لتشرب فنجانًا من القهوة.

استمتعت برؤية شقتها الصغيرة مرتبةً وهادئةً، كما أنعشها صوت الصمت الذي يغمر المنزل وكل الأجواء المحيطة، وجدت هدوءاً لم تعتده، واستمتعت بوحدة لم تألفها، ونعمت براحة لم تعهدها، أعجبتها هذه المشاعر والأحاسيس وإن كانت تعلم في قرارة نفسها أنها لن تدوم لأكثر من ساعتين أو ثلاث على الأكثر، أي إلى أن يبدأ زوجها وأولادها في الاستيقاظ.

فَكَّرَت في أولادها وتذكرت كل مراحل حياتهم حتى الآن، ومعاناتها معهم وخدمتها لهم وعنايتها بهم منذ ولادتهم، ثم كفاحها مع زوجها وخدمتها له ومساندتها له في عمله، وبعد فترة بدأت التفكير في نفسها وحياتها، أدركت أنها ليس لها حياة مستقلة على الإطلاق، فحياتها عبارة عن زوجها وأولادها، وفجأة شعرت بالقلق من أن يكون زوجها -المعروف بعصبيته الشديدة- قد استيقظ نتيجة حركتها في الشقة، فاتجهت إلى غرفتها على أطراف أصابعها واطمأنت إلى أنه لا زال نائمًا.

عادت إلى حيث كانت تجلس، ذكَّرها قلقها المفاجئ من أن يكون زوجها قد أيقظته حركتها بطباعه الحادة والصعبة والتي أحالت كثيراً من أوقات حياتها إلى جحيم لا يطاق، فعصبيته الشديدة

وانفعالاته الحادة والمبالغ فيها كثيراً ما أفسدت عليها معظم أيام وسنوات شبابها.

انغمست في رحلة ذكرياتها مع زوجها لتسترجع كيفية تحول زواجها مع مرور الوقت إلى علاقة روتينية تخلو من الحب والتفاهم بل تخلو حتى من أبسط أنواع المشاعر الإنسانية السوية، وقفت عند اختلافاتهما الكبيرة وكيف فكرت كثيراً في الانفصال ولكن منعها خوفها من مواجهة الحياة وحدها، وكيف أقنعت نفسها بالبقاء معه تحت شعارات كثيرة منها أن كل الرجال بهم عيوب، وبأنها تؤدي رسالة سامية في الحياة تتمثل في رعاية أسرتها وهي رسالة لا تنتظر مردودها في الدنيا ولكن في الآخرة، تذكرت كيف واظبت على أداء الطقوس والشعائر الدينية بشكل مبالغ فيه لكي تتمكن من مواصلة الحياة داخل هذا الزواج الذي أصبح يشبه زجاجة المياه الغازية الفاترة بعد تطاير الغاز منها.

أنهت قهوتها ثم ذهبت إلى المطبخ لتغسل الفنجان، وفي أثناء ذلك سألت نفسها على سبيل التهكم: هل لو تركت فنجاني مكانه مثلما يفعل كل شخص آخر في المنزل سيأتي أحد ويغسله؟! ثم أجابت نفسها بحدة: يبدو أن وظيفتي الوحيدة في هذا المنزل -بل وفي هذه

الدنيا- هي أن أكون خادمةً لهم!! أنهت جملتها وأنهت معها غسيل الفنجان ثم أغلقت صنبور المياه وعادت مرة أخرى إلى الصالة.

حاولت السيطرة على انفعالاتها وطرد هذه الأفكار من رأسها، لم تكن المرة الأولى التي تراودها فيها هذه الأفكار، ولكنها لاحظت أنها أصبحت تأتيها بشكل أكثر تكراراً في الشهور الأخيرة.

استيقظ زوجها بعد ساعة تقر يبًا، ثم بعده بساعة بدأ الأولاد في الاستيقاظ، جَهَّزَت لهم طعام الإفطار، تناول الزوج والأولاد إفطارهم سويًّا وجلست معهم على نفس الطاولة وإن كانوا لم يتبادلوا الحديث على الإطلاق، وبعد فروغهم من الفطور انشغل ابنها الأكبر ذو الستة عشر عامًا بشيء ما على جهاز الحاسب الآلي، في حين اتجه الآخران -وكان أحدهما في التاسعة من عمره والآخر يصغره بعام واحد- إلى مشاهدة أحد المسلسلات الكارتونية، أخذ الزوج يقرأ إحدى الجرائد اليومية في حين انهمكت (دنيا) في تجهيز طعام الغداء في المطبخ، وبعد نحو نصف ساعة سمعت (دنيا) زوجها يناديها، تركت ما في يديها واتجهت إليه.

قال لها الزوج: ظروفنا المادية ليست على ما يرام.

فسألته (دنيا): لماذا؟ ما الذي تَغَيّر؟

فأجابها: الشركة لم تعد تحقق أرباحًا تُذْكَر وقد اضطررت لتخفيض هامش الربح لكي أواجه المنافسة.

فقالت (دنيا): لقد لاحظت بالفعل أنك تخفض أسعار البيع، كما لاحظت أيضًا انخفاضًا في المبيعات، هل فكرت في استخدام بعض من فوائد ودائعك الشخصية للإنفاق على البيت؟

فأجابها بحدة وانفعال وصوت مرتفع: أنتِ تعلمين أن هذا مبدأ مرفوض بالنسبة لي، فالودائع وفوائدها ممنوع تمامًا الاقتراب منها، إنها صمام الأمان لنا عندما نكبر ونتجاوز الستين.

كانت تعلم تمامًا حدته وانفعاله عندما يتعلق الأمر بمدخراته، وكانت تعلم يقينًا أن الأمر متعلق ببخله الشديد وليس بتوفير الأمان لهما عندما يكبران، إلا أنها لم تشأ الدخول معه في جدال تعرف نتيجته مسبقًا، فطالما حاولت معه قبل ذلك في أمور شتى ولكن باءت كل محاولاتها معه بالفشل، فهو مثلا لا يزال مُصِرّاً على العيش في هذه الشقة الصغيرة المكونة من غرفتين صغيرتين وصالة محدودة المساحة لدرجة أن الأولاد الثلاثة ينامون في غرفة واحدة!

تذكرت كيف أن بخله الشديد تكفَّل بإفساد الكثير من أيام وسنوات شبابها، فلم تشأ أن يفسد بخله ذلك اليوم أيضًا.

فقالت له: حسنًا، أتفهم ذلك تمامًا، وما الحل من وجهة نظرك؟

فقال لها: لا بد من تخفيض نفقاتنا.

لم تشأ معارضته، ولكنها في نفس الوقت كانت تعلم أن نفقاتهم في الحد الأدنى ولا يمكن لهما أن يخفضاها أكثر من ذلك.

فقالت له: حسنًا، سأحاول قدر استطاعتي.

وبعد فترة صمت دامت بضع ثوان فاجأها بالقول: لماذا لا تبحثين عن عمل آخر بعيدًا عن شركتي؟!

نزل عليها سؤاله مفاجئًا، لم تعرف بماذا ترد، إلا أنها أحست بهذا السؤال وكأنه يفتح لها نفقًا من الضوء في عتمة إرهاقها ويأسها وروتينية حياتها وإحساسها بانعدام التقدير الذاتي الحقيقي، فقالت له بتلعثم: حسنًا، سأبحث عن عمل في شركة أخرى.

فقال لها: هذا سيكون أفضل لنا، فحجم العمل في شركتي الصغيرة لن يتأثر بغيابك، ولكنك إذا وجدت عملًا جيدًا سواءَ هنا أو حتى في (القاهرة) فهذا سيساعدنا في زيادة موارد الأسرة.

أحست باستياء شديد من الجزء الأول من جملته، حيث عكس عدم تقديره لمجهوداتها معه منذ تأسيسه لشركته بعد نحو سنة من بداية زواجهما، أي منذ تسعة عشر عامًا، كما أحست بمرارة من الجزء الثانى من جملته، فهو لا يمانع أن تعمل في (القاهرة)، أي على بعد نحو مائة و عشرين كيلو مترًا من سكنهما، لمجرد أنه لا يريد الاقتراب من ودائعه، وهي الودائع التي شاركته هي -بعملها معه- في ادخارها.

إلا أنها رأت في كل ذلك فرصةً لها للخروج من السجن المفروض عليها منذ سنوات طويلة، فقالت له: حسنًا، سأبدأ في قراءة إعلانات الوظائف في الجرائد وكذلك على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت) فور الانتهاء من إعداد طعام الغداء.

فأعجبه الرد وابتسم قائلًا: سأقرأ أنا لكِ هذه الإعلانات وأرشح لكِ بعض الوظائف المناسبة إلى أن تنتهي من إعداد طعام الغداء.

وبعد ما يقرب من ساعة، انتهت (دنيا) من إعداد طعام الغداء، تركت المطبخ واتجهت إلى حيث يجلس زوجها في الصالة، وفور أن جلست على الكرسي المجاور له بادرها بالقول: هناك عدة إعلانات لعدة وظائف أرى أنها مناسبة لك.

فقالت: هذا خبر جيد، وما هي تلك الوظائف؟

فقال لها الزوج: هناك أربعة وظائف ولكن هذه تحديدًا هي الأكثر ملاءمةً والأنسب لكِ من وجهة نظري. قال لها ذلك وهو يعطيها الجريدة ويشير لها على الإعلان الخاص بهذه الوظيفة.

قرأت الإعلان، وإذا به يطلب سكرتيرةً تنفيذيةً لرئيس مجلس إدارة إحدى الشركات، ويشترط خبرةً لا تقل عن عشر سنوات في وظيفة مماثلة يفضل أن تكون في شركة متعددة الجنسيات، مع اشتراط إجادة للغة الإنجليزية وإمكانية العمل لساعات إضافية، وكذلك إمكانية العمل في أيام الإجازات إذا تطلب العمل ذلك.

قالت له: يبدو الإعلان جيدًا، وكونه مكتوب باللغة الإنجليزية فمعنى ذلك أنهم يستهدفون فئةً معينةً من المتقدمين، ولكن طلبهم أن تكون الـ خبرة في شركة متعددة الجنسيات ربما يكون عائقًا، بالإضافة إلى أن

مقر الشركة في (القاهرة) وهذا يعني أنني سأضطر إلى قيادة السيارة لساعات طويلة يوميًا ذهابًا وعودة.

فقال لها: بالنسبة لنوعية الخبرة فالإعلان يقول "يُفَضَّل" ولكن لا يشترط ذلك، أما من حيث كون الشركة في (القاهرة) فلا أعتقد أن ثلاث ساعات من القيادة يوميًا ستكون نهاية العالم بالنسبة لكِ!

فقالت (دنيا) وهي تحاول إخفاء امتعاضها: معك حق، ولكن هناك أمر آخر وهو العمل لساعات متأخرة وفي أيام الإجازات، فهذا قد يسبب حِملًا زائدًا عليّ وقد لا يمكنني من الاعتناء بالبيت كما ينبغي.

فَعَلَّق زوجها: إن أولادنا قد كبروا الآن وأصغرهم في الثامنة من عمره، ولا يحتاجون لهذا النوع من الرعاية المستمرة، وعمومًا إذا تم قبولك في هذه الوظيفة وكان مرتبك مجزيًا، تستطيعين بجزء منه أن تحضري لنا خادمةً تساعدك في شئون المنزل! ثم أردف بعد ثوان وعلى وجهه ابتسامة: حتى نضمن دائمًا أن يكون هناك وقت لي!

أصابها تعليقه بصدمة إضافية وأحست بامتعاض كبير، وذلك بسبب تفكيرة المادي البحت الذى يزداد يومًا بعد يوم، وأيضًا بسبب

إصراره الدائم على نظرتة الدونية لها ومعاملته لها كوعاء لإشباع رغباته وخادمة لتلبية احتياجاته.

ولكنها قالت له: حسنًا، سأقوم بالتقديم وسنرى بعد ذلك ما الذي سيحدث.

اتصلت برقم الهاتف الموجود في الإعلان فطلبوا منها إرسال سيرتها الذاتية بالبريد الإلكتروني (الإيميل).

وبعد ثلاثة أيام جاءتها مكالمة من الشركة تطلب منها الحضور لمقابلة رئيس مجلس إدارة الشركة في تمام الثامنة من صباح اليوم التالي، اندهشت (دنيا) من المكالمة حيث إن المعتاد في مثل هذه الأمور هو أن تُجري أولًا مقابلةً شخصيةً مع أحد مسؤولي الموارد البشرية، إلا أنها تحمست للموضوع ففي النهاية ليس لديها شيء تخسره.

في صباح اليوم التالي استيقظت مبكرًا، ثم قادت سيارتها - التي يعود تاريخ صنعها إلى عشرة أعوام سابقة- من (الإسماعيلية) إلى (القاهرة)، ووصلت مقر الشركة في تمام السابعة والنصف، وبعد أن دخلت مبنى الشركة الفخم المكون من ثمانية أدوار، أخبرها موظف

الاستقبال بأنها ستقابل رئيس مجلس الإدارة في تمام الساعة الثامنة كما هو محدد، وطلب منها الانتظار في إحدى القاعات.

دخلت القاعة التي أرشدها إليها موظف الاستقبال، وأثناء دخولها تلك القاعة الفخمة قرأت على بابها أنها مخصصة أساسًا للاجتماعات، وبعد جلوسها بقليل بدأت بعض الفتيات والسيدات في الانضمام إليها، استنتجت أن هؤلاء السيدات الثلاث هن مرشحات لنفس الوظيفة، اختلست بعض النظرات إليهن مما أصابها ببعض الإحباط؛ فكلهن أصغر منها عمرًا ويرتدين ملابس باهظة الثمن، وبعد أن تجاذبت معهن بعض أطراف الحديث أدركت أن نوعية خبراتهن أنسب كثيرًا للوظيفة المطلوبة؛ فازداد إحباطها، إلا أنها قالت في نفسها: ليس لَدَيّ شيء أخسره، وانتظرت بهدوء وهي تقرأ التقرير السنوي للشركة.

في تمام الثامنة إلا خمس دقائق دخل موظف من إدارة الموارد البشرية إلى القاعة التي تنتظر بها المرشحات ونادى اسمها قائلًا: الأستاذة (دنيا صفوت).

فوقفت (دنيا) قائلةً: أجل، أنا.

فقال لها: تفضلي معي.

واصطحبها عبر ممر طويل إلى مكتب فخم للغاية ظنته مكتب رئيس الشركة، إلا أنها فوجئت عندما وجدت بابًا في نهاية الغرفة يفتح وتخرج منه سيدة في نحو الثلاثين من عمرها.

فقال الموظف موجهًا كلامه إلى تلك السيدة: معي الأستاذة (دنيا) وهي هنا للمقابلة الشخصية.

فسألته تلك السيدة بعد أن تركت الباب مفتوح جزئيًا: موعد الساعة الثامنة؟

فأجابها: نعم.

فقالت لها: تفضلي، السيد (أمجد) في انتظارك، وأشارت لها بالدخول.

فكرر موظف الموارد البشرية قائلًا: تفضلي، وأشار لها بيده إلى الباب أيضًا، ثم أضاف: بالتوفيق.

مشت (دنيا) ما يقرب من ثماني خطوات من حيث تقف إلى الباب، حاولت إخفاء توترها؛ فهي وإن كان ليس لديها شيء تخسره

لكنها الآن تتمنى أن تربح، لقد اكتشفت في النصف ساعة السابقة أن الشركة كبيرةً للغاية وإن كانت غير مشهورة، لقد تمنت أن تربح هذه الوظيفة فيفتح لها عملها هنا نافذةً في حياتها الرتيبة، دفعت الباب ودخلت إلى مكتب رئيس الشركة، وجدت المكتب شديد الفخامة وواسعًا جدًا لدرجة أنها مشت نحو عشرين خطوة كاملة لتصل إلى حيث يجلس خلف المكتب، ومع كل خطوة كان يزداد توترها وتتسارع نبضات قلبها، ومع كل خطوة كان يزداد لديها الإحساس بأنها في المكان الخاطئ، ديكورات المكتب كانت شديدة العصرية وكل ألوانها فاتحة للغاية على العكس من ملابسها ذات الطراز القديم نسبيًا والألوان الداكنة.

بعد أن وصلت إليه، وقف هو ليسلم عليها ومد يده ليصافحها قائلًا: أهلا أستاذة (دنيا)، أنا (أمجد باهر).

فمدت يدها قائلة: أهلا أستاذ (أمجد).

صافحته ويديها ترتعش من التوتر، ثم جلست على الكرسي المقابل له.

قال لها: كيف حالك؟

فقالت: أنا بخير والحمد لله.

فقال لها: مبروك!

فقالت له: بارك الله فيك، ولكن مبروك على ماذا؟

فقال: على الوظيفة.

فقالت له: لم أفهم شيئًا!

فقال لها مبتسمًا: أنا لدي مديرة مكتب وبالتأكيد أنتِ قابلتها عند الدخول، ونظرًا لزيادة حجم العمل أحتاج سكرتيرة أخرى، ولذلك قمت بنشر الإعلان الذى قرأتيه وأعتقد أنكِ هنا اليوم من أجل هذه الوظيفة، أليس كذلك؟

فقالت: نعم أنا هنا اليوم من أجل وظيفة السكرتيرة المنشورة في الإعلان، ولكن هل يعني هذا أنني قُبلت؟ وماذا عن المتقدمات اللاتي كن معي في القاعة؟

فقال لها: إن المتقدمات اللاتي رأيتيهن في القاعة سيتم اختبارهن لوظائف أخرى! نعم، لقد اخترتك لهذه الوظيفة لحظة قراءتي لسيرتك الذاتية منذ يومين! يبدو أنك لم تتذكريني بعد!

فقالت له: عفوًا، لا أتذكرك فأنا مرتبكة للغاية.

فقال لها بابتسامة واختصار: منذ نحو ثمانية عشر عامًا، افتتحت شركتي للخدمات البترولية فرعًا لها في مدينة (الإسماعيلية)، وقمت بشراء كافة احتياجاتي من الحاسب الآلي ومستلزماته من شركة زوجك، وبعدها بعامين ا فتتحت فرعًا للشركة في مدينة (السويس)، وبعده بعامين آخرين افتتحت فرعًا آخر في مدينة (الطور)، وفي كل مرة كنت أشتري كافة مستلزمات الحاسب الآلي من شركتكم، وكنتِ أنتِ من تتولين النقاش والتفاوض من جانبكم، وأنتِ من أقنعتني بالشراء من شركتكم الصغيرة على الرغم من وجود عدة عروض لَدَيّ من شركات أخرى أكبر حجمًا.

فكرت (دنيا) مليًا فيما قاله وبدأت ذاكرتها تستعيد هذه الأحداث ثم قالت: نعم أتذكر، لقد تكلمنا عدة مرات على الهاتف ولكنّنا لم نلتق أبدًا.

فقال لها: نعم، كنت أنا أتولى المفاوضات والاتفاق على الهاتف، ثم تتولى إدار ة المشتريات الأعمال الورقية والتَّسَلُّم.

فقالت (دنيا): نعم أذكر ذلك جيدًا الآن.

فعقب (أمجد): لقد أعجبت دائمًا بمدى التزامك وجديتك ومهنيتك في العمل، لذلك فور رؤيتي لسيرتك الذاتية لم أتردد أبدًا في اتخاذ قرار فوري بتعيينك.

فقالت (دنيا) بابتسامة وفرحة تعكس عدم تصديقها حتى الآن: شكرًا جزيلًا يا أستاذ (أمجد) على هذه الثقة.

وقف (أمجد) ثم سألها: هل أنت جاهزة للبدء في العمل؟

فقالت بعد أن أحست بالجدية في صوته: نعم.

فقال لها: حسنًا، هيا بنا إلى المطار.

فقالت له متعجبة ومتسائلة: المطار؟!

فقال: نعم، سنذهب في رحلة عمل سريعة إلى (قبرص)، ستقلع طائرتي الخاصة بعد نصف ساعة.

فتعجبت وقالت: طائرة خاصة؟! الآن؟! (قبرص)؟!

فأمسكها من يدها ليجعلها تقف وقال: نعم، سأتابع توسعات فندقي هناك.

فوقفت وهي لاتزال غير مصدقة لما يحدث، إلا أنه أمسك بملف ورقيَ وأعطاه لها ومعه قرص مدمج (CD)، ثم اتصل بالتليفون الداخلي للشركة وقال للطرف الآخر: أريد حاسبًا شخصيًا محمولًا (لابتوب) فورًا لموظفة جديدة في الشركة.

ثم قال لـ(دنيا): أريدك أن تلقي نظرة على هذا الملف، وأيضًا على هذا القرص المدمج.

فنظرت له متعجبةً، فأكمل كلامه: هذا الملف وهذا القرص المدمج يتعلقان بعملية توسعة الفندق الذي أخبرتك عنه، وقد اتصلت أمامك بقسم الحاسب الآلي ليحضروا لكِ حاسبًا شخصيًا محمولًا. (دنيا) لا تتعجبي فنحن هنا نعمل بسرعة، سنجتمع بعد نحو ساعتين ونصف مع شركة المقاولات التي تتولى تنفيذ التوسعات، أريدك أن تلمي بالموضوع سريعًا.

أدركت (دنيا) أنها لا بد أن تتجاوز صدمة المفاجأة وتعمل بسرعة، اتصلت بزوجها وقالت له: أنا الآن في مقر الشركة وسأضطر للتأخر عدة ساعات لاستكمال بعض الإجراءات والاجتماعات.

فسألها: هل تسير الأمور بشكل جيد؟

فأجابته: نعم، كل شيء على ما يرام، والحمد لله أنني أحضرت جواز سفري كإثبات للشخصية بديلا عن بطاقتي الشخصية التي فقدتها منذ عدة أيام.

فقال لها: حسنًا خذي وقتك كاملًا، التركيز مهم جدًا في المقابلات الشخصية، أتمنى أن توفقي في الحصول على هذه الوظيفة.

استقلت السيارة مع (أمجد) وبعد عشر دقائق كانا في المطار وبعدها بعشر دقائق أخرى أقلعت طائرته الخاصة متجهةً إلى (قبرص).

قررت (دنيا) في داخلها استثمار هذه الفرصة التي أتيحت لها، وعكفت على قراءة كل الأوراق الموجودة في الملف وتصفحت كل الملفات المخزنة على القرص المدمج، علمت أن هذا الفندق هو أول مشاريع الشركة في (قبرص) وأن عملية التوسعة تهدف إلى مضاعفة عدد الغرف، رتبت أفكارها ونَظَّمَت أوراقها، وفهمت من (أمجد) الدور المطلوب منها بالضبط في الاجتماع، وفي أثناء الاجتماع أدت دورها بكفاءة، عرفت جيدًا متى تتكلم ومتى تصمت، وأيضًا ما الذي يقال وما الذي لا يقال.

بعد أن انتهى الاجتماع قال لها (أمجد): لقد كنت رائعةً، وبالذات عندما ضغطتِ عليهم لإعادة الطلاء الخارجي للفندق مرة أخرى، وكذلك عندما طلبت تأخير سدادنا للدفعة الأخيرة ثلاثين يومًا.

فقالت (دنيا): لقد شاهدت صورًا للفندق على القرص المدمج ولم يعجبني اللون الباهت للطلاء وتأكدت من ذلك عندما وصلنا إلى الفندق، كما راجعت جدول تدفقاتنا النقدية ووجدت أننا نتحرك يومًا بيوم، لذلك طلبت هذا التأجيل فقط تحسبًا لأي طارئ، وعلى الرغم من أنهم وافقوا على التأجيل لعشرين يومًا فقط إلا أن هذا سيجعلنا في مأمن نسبيِ من التقلبات الصغيرة التي قد تحدث، لقد تعلمت هذا الدرس من شركة زوجي.

فقال لها (أمجد): من الواضح أنني قد أحسنت الاختيار وأنكِ لن تخيبي ظني. ثم أضاف: سنذهب الآن لشراء بعض الملابس لي ولكِ لأن لدينا اليوم عشاء عمل وحفل استقبال في (شرم الشيخ).

قالت له: (شرم الشيخ)؟! اليوم؟!

فقال لها: نعم، سنرحل من هنا بعد ساعة ونصف، أي أن أمامنا أقل من ساعة للتسوق ثم أقل من نصف ساعة للغداء، بعدها سنطير إلى

(شرم الشيخ) ونستعد للعشاء، فسوف نناقش مع بعض رجال الأعمال الأردنيين مشروعًا مشتركًا لبناء فندق على (البحر الميت)، سأعطيك التفاصيل بعد عودتنا من التسوق، هيا بنا لكي لا نتأخر!

فقالت له (دنيا): حسنًا.

أحست أنها في حلم ما، لم تكن مصدقةً ما يحدث، لقد كانت حتى بضع ساعات مضت لا تفكر إلا في بيتها وأسرتها، أما الآن فيبدو أن هناك عالمًا جديدًا يُفتح له أول ولا تكاد ترى له آخرًا، ولم تَفُق من حالة الصدمة والاندهاش إلا بعد بضع دقائق عندما وجدت نفسها أمام أحد محلات الأزياء شديدة الفخامة وبجانبها (أمجد) يسألها: ما رأيك في هذا الفستان الأسود؟

فأجابت وهي لا زالت لم تنتقل بعد إلى حالة الوعي الكامل: الفستان الأسود؟

فقال لها (أمجد): نعم هذا الفستان الأسود، الفستان الأول ناحية اليمين. وأشار لها بيده نحو الفستان.

فقالت له: إنه أنيق للغاية، ولكنه مفتوح قليلًا، لا أعتقد أنه سيعجب زوجي.

فقال لها (أمجد): أنا أسألك أنت ولا أسأل زوجك، وعمومًا أنت من سترتدينه وليس هو!

فقالت (دنيا): إنه رائع ولكن....

فقاطعها (أمجد) قائلًا: وأنا أيضًا أرى أنه سيكون رائعًا عليكِ، هيا لتجربيه. قال الجملة وهو يخطو إلى داخل المحل.

فلم تجد (دنيا) نفسها إلا وقد دخلت خلفه، ثم قامت بتجربة الفستان الأسود.

فقال لها (أمجد) وهو يشاهدها مرتديةً الفستان: ألم أقل لك بأنه سيكون رائعًا عليكِ؟

فقالت له : نعم ولكنه مفتوح بشكل مبالغ فيه من أعلى.

فقال لها (أمجد): إنكِ سترتدينه في (شرم الشيخ) وأعتقد أنه سيكون مناسبًا للأجواء هناك.

نظرت (دنيا) لنفسها في المرآة، كانت هذه أول مرة ترتدي هكذا فستان منذ ما يقرب من عشرين عامًا، أحست بسعادة كبيرة،

جزء منها يرجع إلى أنها تبدو رائعةً في هذا الثوب، وجزء آخر لأنها تمكنت من إقناع نفسها بارتدائه، وربما لأنها وُضعت في ظروف جعلتها تقتنع بارتدائه.

ثم قطع صوتُ (أمجد) صمتَ تفكيرها عندما سمعته يسأل: حسنًا، ما رأيك؟

فأجابت: إنه رائع، سأشتريه.

فقال لها (أمجد): ستشتريه لك الشركة، هذه رحلة عمل وهي مدفوعة بالكامل من جانب الشركة.

فقالت (دنيا) وقد بدت على وجهها علامات السعادة: شكرًا جزيلًا.

فقال (أمجد): عفوًا، ولا شكر على واجب.

ثم اتجه (أمجد) إلى مسؤول الخزينة ودفع الحساب باستخدام بطاقة الائتمان الخاصة بالشركة.

(أمجد): سنذهب الآن إلى أحد محلات الأزياء الرجالية، أريدك أن تساعديني في اختيار بدلة جديدة لحضور عشاء وحفل الليلة.

(دنيا): أعتقد أنه من الأفضل أن أتركَكَ لتختار وحدك.

(أمجد): أنا لا أريد أن أختار وحدي، أريدك أن تساعديني في الاختيار.

أحست (دنيا) بشعور غريب فقد كانت غير معتادة على أن تشارك رجلًا في اختيار ملابسه، فزوجها لم يكن يتركها تشاركه في اختيار ثيابه على الإطلاق، وذلك بحجة أنه يريد التركيز على الثياب العملية وليس الثياب الفاخرة أو الجميلة كما تفعل هي.

قالت (دنيا): حسنًا، أقدر لك ثقتك، وأتمنى أن تعجبك اختياراتي.

ثم اتجها إلى محل الثياب الرجاليّ واختارت له بدلةً أنيقةً كُ حْلية اللون، لم يجادلها (أمجد) كثيراً وإنما أسرع بتجربة البدلة التي اختارتها له ثم اشتراها.

بعد أن أنهيا تسوقهما، اتجها إلى أحد المطاعم الفاخرة في الطابق الأخير من فندق الشركة ليتناولا طعام الغداء، كان المطعم مطلًا على البحر مباشرةً، ونظرًا لكونه في الطابق الأخير فقد كان مدى الرؤية بعيدًا بحيث تشاهد البحر على مرمى البصر، وفي نهاية الأفق ترى ما يبدو وكأنه التقاء للبحر مع السماء، كان تدرج اللون الأزرق

بين البحر والسماء والتقائهما في الأفق يبدو مذهلًا ومريحًا للنفس والأعصاب.

وفي أثناء الغداء سألته (دنيا): لماذا تريد إنشاء فندق جديد في (الأردن)؟

فقال لها (أمجد): من الواضح أنك لا تحبين ضياع دقيقة واحدة دون التفكير في العمل، إن السياحة في (مصر) تدهورت منذ أحداث يناير عام ٢٠١١، ولذلك كان لا بد أن اتجه للخارج؛ فأسست هذا الفندق وكذلك فندقًا آخرًا في (اليونان)، وأفكر حاليًا في منطقة (البحر الميت).

فقالت له: ولماذا السياحة تحديدًا؟ أعتقد أن مجال عملك الأصلي هو البترول، أليس كذلك؟

فأجاب (أمجد): نعم، فقد أسس والدي شركةً للخدمات البترولية منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وكان هذا هو نشاطنا الوحيد حتى عشر سنوات مضت عندما اتخذت أنا قرار التوسع في مجالات أخرى واخترت السياحة، وأنشأت فندقًا في (شرم الشيخ) وآخر في (القاهرة) وهو قريب من مقر الشركة.

فَعَلَّقَت (دنيا): إذا أردت رأيي، فأنا أقترح عليك الابتعاد قليلًا عن مجالات الاستثمار ذات رءوس الأموال والأصول الضخمة، وأقترح الاتجاه بجزء من أموالك في استثمارات لا تحتاج لهذا الحجم من الأصول الثابتة وفي نفس الوقت يَسهلُ الدخول والخروج منها.

فعلق (أمجد): أكملي، ما هى اقتراحاتك؟

فأجابت: الاستثمار في البورصة أو أسواق العملات.

فقال (أمجد): لقد ترددت كثيراَ في أن أدخل أيًّا من المجالين.

فقالت له (دنيا): التردد شيء طبيعي؛ لأن المجالين جديدان تمامًا بالنسبة لك، عمومًا أستطيع ترتيب مواعيد لك مع مسؤولي ثلاث شركات تعمل في كل مجال منهما ثم بعد ذلك تقرر بنفسك.

فقال لها (أمجد): أنت رائعة! طالما آمنت بأنني أستطيع دائمًا اختيار الشخص الأفضل ليكون بجانبي.

فقا لت له (دنيا): شكرًا جزيلًا، أتمنى أن أكون عند حسن ظنك.

وقالت في نفسها: يبدو أن هوايتي الوحيدة وهي متابعة أخبار البورصة واتجاهاتها صعودًا وهبوطًا لم تذهب سدى، على الرغم من أن زوجي كان يرفض تمامًا أن نقوم أنا أو هو بأية استثمارات في البورصة لخوفه الشديد من احتمالات الخسارة.

فقال (أمجد) وهو ينظر إليها محدقًا: أنت بالفعل عند حسن ظني.

بعد أن أنهيا غداءهما استقلا الطائرة واتجها إلى (شرم الشيخ)، حضرا الاجتماع، وكالعادة حاولت (دنيا) تحسين شروط التفاوض إلى أقصى درجة ممكنة، ونجحت بالفعل في عدة نقاط؛ مما زاد من إعجاب (أمجد) بأدائها.

بعد نهاية حفل الاستقبال في نحو الحادية عشرة مساءً، استقلا الطائرة عائدين إلى (القاهرة). كان هذا يومًا ليس كأي يوم عاشته (دنيا) في حياتها، سفر واجتماعات وصفقات في عدة مدن في يوم واحد، فجأة بدت حياتها في سنوات عمرها الخمس وأربعين عمومًا، والسنوات العشرين الأخيرة خصوصًا ليست ذات معنى يذكر، بدت وكأنها كانت تعيش في صندوق ضيق مغلق بلا أمل أو طموح أو تجديد، أحست بأنها اليوم فقط قد بدأت تعيش الحياة التي تستحقها.

بعد أن حطت الطائرة في مطار (القاهرة)، وكانت الساعة تشير إلى ما بعد الثانية عشرة مساءَ بقليل، اتصل بها زوجها على الهاتف المحمول، نظرت إلى الهاتف ولم ترد عليه وإنما أرسلت له رسالةً مختصرةً: لقد حصلت على الوظيفة، أنا في اجتماع، سأكلمك لاحقًا.

لاحظ (أمجد) أن جرس هاتفها يرن قبل أن تضعه على وضعية الصمت، خمن أنه ربما يكون زوجها، فقال لها: سأطلب من ا لسائق أن يقوم بتوصيلك إلى (الإسماعيلية)، لقد أخرتك كثيراَ ولا يصح أن أتركك ترحلين وحدك في هذا الوقت المتأخر.

فقالت له (دنيا): شكرًا جزيلًا، ولكنني لا أعتقد أنني أريد الذهاب إلى المنزل اليوم.

فقال لها: وأين تريدين الذهاب؟ سأطلب من السائق أن يوصلك إلى أي مكان تريدينه.

فقالت له: سأبحث عن أي فندق قريب من الشركة لأبيت فيه، أريد أن أراجع مع نفسي الكثير من الأمور.

فقال لها (أمجد): سأخبر السائق أن يوصلك إلى فندقنا وسأطلب من إدارة الفندق استضافتك، وابتسم ثم أضاف: فأنت لا زلت في رحلة عمل.

فقالت له (دنيا): شكرًا جزيلًا، أعتقد أن هذه الرحلة ستستمر طويلًا.. طويلًا جدًا!

obeikandl.com

انكسار

وصل إلى عمله في تمام الثامنة صباحًا، ثم أدَّى ما اعتاد عليه من تصرفات بشكل تلقائي، ختم بطاقة الحضور والانصراف وألقى التحية على زملائه، ثم جلس خلف مكتبه وأمام شاشة حاسبه الشخصي المحمول (اللابتوب).

أمضى (نسيم) الثلث ساعة الأولى من نهار عمله يقرأ الجرائد اليومية ويشرب فنجانًا من الشاي كما اعتاد يوميّا خلال السنوات العشرين الماضية.

في تمام الثامنة والنصف فتح البنك أبوابه للجمهور وبدأ العملاء في التوافد، عندها أخذ يسحبه دوار العمل تدريجيّا، كان يؤدي عمله بشكل روتيني محض دونما تفكير أو إبداع أو اندماج، كان أقرب ما يكون إلى آلة متكلمة منه إلى إنسان، إلا أن ذلك لم يلفت انتباه أي من زملائه القدامى، فقد اعتادوه شخصيّا منذ سنوات

طويلة، كما اعتادوا سلوكه الانطوائي الانسحابي في السنوات الخمسة الأخيرة.

كان الانطباع العام الذي تكون عن (نسيم) بين زملائه في العمل خلال السنوات الخمسة الماضية أنه أصبح انطوائيّا ويميل للعزلة، وأنه فقد حيويته واجتماعيته اللتين اشتهر بهما في سنواته الأولى في البنك، أصبح حاليًا لا يتكلم إلا للضرورة ولا يتحرك إلا إذا كانت هناك حاجة ملحة، لم يعد مندمجًا مع زملائه سواءً داخل أو خارج نطاق العمل وانفصل عنهم تدريجيّا ثم ابتعد عنهم تمامًا، وعلى الرغم من كونه حاليًا مديرًا عامًا لإحدى الإدارات المهمة في البنك، إلا أنه عادةً يكتفي بالحد الأدنى من الإشراف، ويحاول دائمًا تجنب إعطاء الأوامر والتوجيهات لدرجة أنه نادرًا ما يُضبط متلبسًا بإصدار قرار أو إعطاء توجيه، لم يفهم أحد سبب هذا التحول، ولم يحصل أيّ ممن سألوه على إجابة مقنعة.

لاحظ أحد موظفي إدارته الجدد هذه الحالة من الانطوائية والانسحاب، وكان هذا الموظف قد التحق بالبنك منذ أسبوعين فقط، فسأل أحد زملائه الأقدم منه: لماذا يبدو (نسيم) وكأنه يتعمد عدم

إعطاء الأوامر؟ لماذا يتجنب أي موقف قد يضطر فيه إلى اتخاذ قرار أو إصدار توجيه؟

فأجابه زميله: لا أحد يعرف السبب، ولكنك لم تختبر العمل معه قبل سنوات مضت، فقد كان مسيطرًا إلى أبعد مدى، فعندما كان نائبًا للمدير لم يكن أحد يتنفس في الإدارة إلا بإذنه، ولكنه تغير كثيرًا في السنوات الأخيرة.

فسأله الموظف الجديد: ما الذي حدث؟ ما الذي تغير؟

فأجابه زميله القديم: لا أحد يعرف، ولكنه تغير منذ خمس سنوات، لم يعد (نسيم) القديم الذي عرفناه وعملنا معه، أصبح شخصًا آخرًا غير مبال ولا أحد يعرف سر التحول.

بعد أن انتهى يوم العمل وفي أثناء قيادته لسيارته عائدًا إلى منزله، كانت بعض خلايا ذاكرة عقله تبحر في الماضي وتستعيد ذكريات من سنوات عمله الأولى في البنك، كان شعلةً من النشاط، كان كالنحلة دائم التحرك والعمل المنتج، وكان مضرب المثل في الحيوية والإبداع والتجديد، كما كان من أكثر موظفي البنك شعبيةً؛ نتيجة طبيعته الاجتماعية وقدرته المتميزة على التواصل مع الآخرين،

واستمر يتذكر ذلك الحال الذي ظل عليه لسنوات وسنوات وحتى خمس سنوات مضت، ثم توقف إبحاره في الماضي عندما وجد نفسه أمام باب بيته.

دخل منزله في هدوء ودونما كلام، نظر إلى ابنه الوحيد ذي السنوات العشر ولم يتبادل معه إلا أقل الحديث، دخل إلى غرفته، بَدَّلَ ثيابه ثم جلس إلى المائدة ليتناول ما أعدته له زوجته من طعام الغداء، جلس الزوجان صامتان حول المائدة في حين ظل ابنهما يحاول انتزاع أي كلمة منهما دون جدوى.

بعد انتهاء الغداء، بَدَّلَ (نسيم) ثيابه ثم خرج مسرعًا كأنه يهرب من شيء ما، ذهب ليجلس كعادته اليومية على أحد المقاهي القريبة من بيته متجاهلًا جملة عابرة قالتها له زوجته: ألن تذاكر لابنك ولو يومًا واحدًا على سبيل التغيير؟! ألن تسأله عما يفعل في المدرسة أو النادي كأي أب؟!

جلس على المقهي وفوجئ عندما وجد أحد أصدقائه يلقي عليه السلام ثم يترك طاولته وينتقل ليجلس معه، لم يشاهده (نسيم) أثناء دخوله إلى المقهى؛ فقد كان دائم النظر إلى الأرض بشكل مبالغ فيه حتى أصبح هناك انحناءة في أعلى ظهره.

تجاذب أطراف الحديث مع صديقه ثم انضم إليهما عدد من أصدقائهما مع مرور الوقت، لم يتحدث في أمور ذات أهمية تذكر، فقط أحاديث عابرة لتمضية الوقت دونما مغزى أو هدف آخر، ولم يكن مهتمًا بمعرفة أية أخبار سياسية أو رياضية أو ثقافية، فقط نكات لا معنى لها وبعض اللغو الذي لا يغني ولا يسمن من جوع.

سأله أحد الأصدقاء: لقد تغيرت كثيراً يا (نسيم)، فقد كنت دائمًا آخر من يصل إلى المقهى وأول من يغادر، كما كنت دائمًا حريصًا على مناقشة المواضيع المهمة، ما الذي تغير؟

لم يجب (نسيم)، ولكنه سمع تعليقًا من صديق آخر: لقد تغير (نسيم) تمامًا منذ خمس سنوات وبشكل لم يكن يتوقعه أحد.

ثم علق صديق ثالث: كلنا يملؤنا الفضول لنعرف ما الذي غيرك وقَلَبَ حالك منذ خمس سنوات تقريبًا.

ابتسم (نسيم) بشكل مفتعل ولم يعلق على ما قالوه، وظل صامتًا كعادته معظم الوقت إلا من جملة عابرة ليست ذات معنى، أو تعليق غير مؤثر يقوله من آن لآخر.

ومع دخول الليل بدأ الأصدقاء يغادرون واحدًا بعد الآخر حتى بقي وحده في النهاية، كان كأنما لا يريد أن يغادر المقهى، بل الأدق أنه كان لا يريد العودة إلى المنزل.

وعندما انتصف الليل كان لا بد له من المغادرة، فقد أوشك المقهى على الإغلاق، دفع حسابه وجَرّ ساقيه جرًا نحو المنزل.

وصل إلى المنزل، لاحظ تغييراً في أماكن بعض قطع الأثاث، لم يسأل وظل يتحرك ببطء حتى دخل غرفته، بَدَّلَ ثيابه بعد أن استحم ثم نام بجوار زوجته متحاشيًا الاصطدام بها، حاولت زوجته أن تتجاذب معه أطراف الحديث فلم يتجاوب.

سألته: هل أعجبك العطر الجديد الذي تعطرت به هذه الليلة؟

لم يجب (نسيم).

فعادت لتسأله: حسنًا، هل أعجبك قميص النوم الجديد الذي أرتديه؟ ثم أضافت بشيء من التهكم: أم أنك لم تلاحظه أيضًا؟!

تجاهل الرد عليها تمامًا؛ فغيرت وضعية نومها لتعطيه ظهرها ثم قالت له: إنني أذكرك بأنني زوجتك!

لم يعلق، حاول إغماض عينيه عنوةً ليتظاهر بالنوم فقد كان لا يزال مستيقظًا، وتذكر أيامًا كانت مختلفةً وليالي كانت ذات طعم حلو ولون براق ورائحة عطرة زكية، أيامًا كان فيها لا ينام بهدوء بجوار زوجته وكان لا يتحاشى الاصطدام بها، وكان يلاحظ عطرها وثياب نومها الجديد منها والقديم أيضًا، أيامًا أدى زوالها إلى ضياع مذاق الحياة وبالتالي انحسار رغبته في الكثير من أمورها، وفي النهاية قال في نفسه بانكسار: يبدو أنها أيام وَلَّت وانقضت منذ خمسة أعوام تقريبًا، ولن تعود! وعَضَّ على شفتيه ندمًا لأنه استسلم لرحيلها التدريجي عنه ولم يحاول أن يفعل شيئًا للحفاظ عليها!

obeikandl.com

ذكريات غير مفهومة

استيقظ في حوالي السابعة صباحًا وهو ميعاد استيقاظه المعتاد يوميًا سواءً في أيام العمل أو العطلات، أغلق المنبه ببعض الضيق؛ فهو لم يتمكن من النوم منذ عودته من حفل زفاف زميلته في العمل والذى استمر حتى الثانية صباحًا.

جلس (شارد) بضع دقائق على السرير، لم يتمكن من معاودة النوم؛ حيث إنه لم يكن نائمًا من الأساس، وكان متعبًا للغاية لدرجة أنه لم يتمكن من النهوض، أخذ عقلُه -المرهق كجسده- يفكر في حفل زفاف زميلته ويسترجع كل أحداثه بدءًا من بدايته في نحو التاسعة والنصف وحتى نهايته.

حضر (شارد) حفل زفاف زميلته (منى) وهو يرتدي نظارةً شمسيةً لون زجاجها رمادي داكن، تحجج بأن لديه التهاب في عينيه يمنعهما من التعرض للضوء، في حين كان السبب الحقيقي هو إخفاء نظرات الحزن فيهما.

حاول (شارد) أن يفهم سبب حزنه على زواج (منى) وسبب التوتر الذي لازمه طيلة الشهور الستة الماضية، أي منذ أن أخبرته (منى) ببداية قصة تعارفها على زوجها الحالي مروراً بمراحل الخطبة وعقد القران ثم حفل الزفاف. كان (شارد) يعرف جيدًا أن (منى) ليست مجرد زميلة في العمل تَعَرّفَ عليها عند التحاقه بالشركة التي يعملان بها منذ خمس سنوات، ولكنها كانت صديقته المقربة وموضع سره وثقته.

سأل نفسه كثيراً وحاورها، فهو طالما اعتبر (منى) الشخص الأقرب إليه في كل دوائر معارفه، وكان يخاف عليها ويقف بجانبها ويخبرها بكل أسراره وكافة تفاصيل حياته، ويفرح لفرحها وتسعده سعادتها، فلماذا إذن كان يرتفع منسوب التوتر لديه كلما اقترب موعد زفافها؟ ولماذا وصل حزنه وتوتره إلى مدىً غير مسبوق أثناء حضوره حفل زفافها؟

لم يجد إجابةً لسؤاله، وهو سؤال بدأت بذرته منذ ستة أشهر، وظل يسأله لنفسه بتكرار وإلحاح وبعدة طرق حتى اليوم.

نهض (شارد) وترك سريره وأخذ يمشي عدة دقائق في شقته الفخمة التي يعيش فيها وحيدًا؛ وذلك ليحاول تقليل منسوب التوتر

لديه، لم يُجْدِ ذلك نفعًا، فملأ حوض الاستحمام ماءً ساخنًا ثم ألقى بنفسه داخله، حاول أن يهدأ ولكنه أدرك أنه يحاول تهدئة نفسه بالقوة، كما لو كان يصيح في وجهه أمام مرآة بصوت عالٍ ويأمر نفسه بأن يخفض صوته! لذلك قرر على سبيل التغيير أن يتوقف عن الغضب وعن التفكير، وعوضًا عن ذلك حاول أن يتذكر أبرز حواراتهما معًا خلال السنوات الخمس السابقة لعل ذلك يساعده على فهم سبب حزنه وتوتره.

تَذَكَّرَ أول لقاء بينهما عندما التحق بالشركة قبل خمس سنوات، كانت هي أقدم منه في الشركة وإن كان هو أقدم منها في سنوات الخبرة، جاء هو نائبًا لمدير الإدارة التي كانت تعمل بها، وكلفها المدير أن تعرفه على زملائهما في الإدارة وعلى بقية موظفي الشركة الذين سيتعامل معهم بحكم موقعه كنائب لمدير المبيعات والتسويق.

استعاد بذاكرته أول حوارتهما في مكتب مديره.

المدير متصلًا بمنى على الهاتف الداخلي: صباح الخير يا (منى)، تفضلي إلى مكتبي لكي تتعرفي على نائبي الجديد.

بعد أقل من دقيقة، كانت (منى) تطرق الباب مستأذنةً في الدخول، وبعد أن دخلت مكتب مديرهما اتجهت ببصرها إليه قائلةً: صباح الخير.

فأجابها المدير: صباح النور، ثم عرفها على (شارد) قائلًا: أريد أن أعرفك على (شارد)، وقد انضم إلينا بدءًا من اليوم، وسيكون نائبًا لمدير الإدارة، أي نائبًا لي.

فاتجهت (منى) إلى (شارد) وصافحته قائلة: أهلًا وسهلًا بك في شركتنا، أتمنى أن تُوَفَّق في عملك معنا وأن تحقق كل طموحاتك.

صافحها (شارد) وهو يقف ثم نظر مباشرةً في عينيها وقال: أهلًا وسهلًا يا (منى)، لقد أخبرني المدير عنك كثيرًا وشكر لي في قدراتك ومهاراتك.

فقالت له (منى): وقد أخبرني أيضًا الكثير عنك وعن خبراتك السابقة وتوقعاته بأن تكون إضافةً كبيرةً للإدارة وللشركة.

ابتسم (شارد) ابتسامةً خفيفةً ثم وجد المدير يعقب قائلًا: أنا لم أكن أبالغ أو أجامل أيًّا منكما. ثم أضاف: رجاءً يا (منى) اصطحبي (شاردًا) في جولة ليتعرف على موظفي إدارتنا وكذلك موظفي الإدارات الأخرى الذين نتعامل معهم.

فقالت (منى): حسنًا، سأقوم بذلك على الفور.

ثم استأذنا في الانصراف.

استرجع ذكريات ذلك اليوم بكل ما فيه من ابتساماتهما المتبادلة وحواراتهما التي كانت في مجملها عن العمل، وإحساسًا مختلفًا أحسه في ذلك اليوم، لقد أحس كأنما وجد شيئًا كان يبحث عنه في أعماقه منذ زمن، لم يفهم وقتها ذلك الإحساس، وإن كان قد فسره لنفسه لاحقًا -عندما اقترب منها وتوطدت علاقتهما- بأنه إحساس مَن وجد أخيراً شخصًا يمكن أن يكون صديقًا مقربًا له.

استمر (شارد) - وهو مُسْتَلْقٍ في حوض الاستحمام- يتذكر أبرز حوراتهما معًا طيلة السنوات الخمس الماضية، استعاد تفاصيل أول مرة يخرجان معًا، فقد قام بدعوتها على الغداء بعد تعارفهما بثلاثة أشهر، حينها أراد استشارتها في موضوع يتعلق بوظيفة معروضة عليه وبالتالي لم يشأ أن يكون حوارهما في المكتب.

(شارد): هل لديكِ ارتباطات بعد العمل اليوم؟

(منى): لا، ولكن لماذا تسأل؟

(شارد): هل يمكنني دعوتك على الغداء؟

(منى): حسنًا، لا توجد مشكلة.

تذكر (شارد) ذلك الحوار جيدًا، لم تتردد في الموافقة، لم تبحث عن أعذار للرفض أو التأجيل، لم تسأل عن السبب، رأى على وجهها وفي عينيها ابتسامةً فور أن أنهى جملته التي يدعوها فيها للغداء م عه، لم يفهم وقتها هذه الابتسامة أو سببها، ولكنه فَسّرَهَا لنفسه لاحقًا بأنها كانت سعيدةً ببداية مرحلة جديدة من تعارفهما وصداقتهما.

كان سعيدًا بقبولها دعوته، وفَسّرَ تلك السعادة وقتها بأنه تَمَكَّنَ بعد طول صبر من أن يجد صديقةً يمكنه الوثوق بها وبرأيها دون تعقيدات.

استرجع (شارد) حوارهما أثناء الغداء.

(شارد): لقد وصلني اليوم عرضًا للعمل في شركة منافسة.

(منى): حقًا؟ ولكنك التحقت بالعمل معنا منذ بضعة أشهر فقط، هل تفكر جديًا في تغيير وظيفتك الآن؟

(شارد): نعم، ولكي أكون صريحًا معكِ فإن العقد مغرٍ ماديًّا، بالإضافة إلى أنني هناك سأصبح مدير إدارة.

(منى): إذا أردت رأيي بصراحة فأنا أختلف معك.

(شارد): لماذا؟

(منى): لأنك دائم التنقل بين الشركات، فأطول مدة مكثتها في شركة واحدة هي ثمانية عشر شهرًا وهذا يعطي انطباعًا سلبيًا عنك في السوق، أنصحك بالتركيز قليلًا.

(شارد): إنني أحبذ اقتناص الفرص المتاحة ولا أحب أن تفوتني فرصة ما.

(منى): إنَّ ما تفعله ليس محاولة اقتناص فرص ولكنه تَشَتُّتٌ، حاول أن تهدأ قليلًا وستكون النتائج إيجابيةً على المدى الطويل.

صمت (شارد) ولم يعقب.

(منى): عمومًا القرار قرارك في النهاية، ولكنني أريد أن أسالك سؤالًا.

(شارد): تفضلي.

(منى): لماذا اخترتني أنا تحديدًا لتخبرني عن هذه الوظيفة المعروضة عليك؟

(شارد): لأنني أثق بكِ وأثق في رجاحة عقلك، بالإضافة إلى أنني منذ أن تعرفت عليكِ وأنا أحس كأنني أعرفك منذ فترة طويلة.

انتهى حوارهما عند تلك النقطة، لم تُعَقِّب (منى) ولم يسترسل (شارد).

ثم استعاد بذهنه تفاصيل كل نزهاتهما معًا وكل لقاءاتهما خارج نطاق العمل، وكيف كانت تلك الابتسامة تظهر دائمًا على وجهها كلما دعاها للخروج معه، وكان دائمًا يفسر تلك الابتسامة بأنها تكون سعيدةً بتوطيد صداقتهما لأن كثرة تواجدهما معًا يزيدهما قربًا مع الوقت.

بعد نحو نصف ساعة خرج (شارد) من حوض الاستحمام ثم ارتدى ثيابه وأعد لنفسه فنجانًا من الشاي الأخضر لكي يساعده على تهدئة أعصابه، وأثناء احتسائه الشاي ومض في ذهنه فجأةً موقف حدث بينهما منذ ثلاث سنوات عندما تقدم لخطبتها أحد أصدقاء أخيها.

(منى): هل لديك ارتباطات بعد العمل اليوم؟

(شارد): لديّ ارتباط مع أحد الأصدقاء، ولكن لماذا تسألين؟

(منى): أريد أن أتناقش معك في موضوع هام.

(شارد): لا توجد مشكلة، سأرتب أموري.

وفورًا اتصل بصديقه واعتذر له.

وبعد انتهاء الدوام خرج (شارد) و(منى) ليتناولا الغداء معًا، وأثناء جلوسهما، بادرته هي بالكلام.

(منى): منذ عدة أيام تقدم لخطبتي أحد أصدقاء أخي.

(شارد): خطبة؟ وهل في هذا العصر يتقدم الرجل للخطبة مباشرة دون فترة تعارف؟

(منى): كما قلت لك هو صديق لأخي، وبالتالي فنحن نعرف بعضنا منذ عدة سنوات، لذلك فقد فاتح أخي في هذا الموضوع بشكل مباشر.

(شارد): وما هي انطباعاتك عنه؟ وعن موضوع ارتباطكما؟

obeikandl.com

(منى): انطباعي عنه هو أنه شاب جاد ورجل ملتزم، أما بالنسبة للارتباط به فهذا ما أريد أن أستشيرك فيه.

(شارد): حسنًا، أخبريني عما يدور في ذهنك.

(منى): لا تعجبني فيه مجموعة من الأمور، هي ليست عيوب ولكنها متعلقة بالتوافق اللازم بين شخصين يخططان للزواج.

(شارد): وما هي تلك الامور؟

(منى): هو اجتماعي بشكل زائد، يهتم كثيراً بالزيارات العائلية وبحضور كافة المناسبات الاجتماعية، وهو هادئ بشكل كبير ولا يكاد ينفعل إطلاقًا، ولا يمارس الرياضة مطلقًا بالإضافة إلى أنه لا يحب السفر.

(شارد): بصراحة، أنا لا أرى الاجتماعية الزائدة كعيب ولكنها ميزة، فكما ترين أنا لست اجتماعيًا بالمرة وهذا له سلبيات كثيرة، بالإضافة إلى أن هدوءه يعتبر ميزةً، فكما لاحظتِ فأنا منفعل دائمًا وهذا يتسبب لي في كثير من الضغط على أعصابي، أما عدم ممارسته للرياضة فيمكن اعتباره ميزة حيث إنه سيقضي معكِ وقتًا أطول، فكما ترين أنا أقضي معظم وقت فراغي في صالة الألعاب الرياضية، أما عدم

رغبته في السفر فهذه أيضًا يمكن اعتبارها ميزةً تحسب له لا عليه، فهذا سيوفر لكما الكثير من المصروفات المتعلقة بالسفر، فكما ترين أنا أسافر كثيراً مما يستنزف جزءًا كبيراً من دخلي.

فقالت (منى) وهى تنظر بعيدًا عن عينيه: وهو أيضًا لا يحب الدراسة أو حضور الدورات التدريبية بأنواعها وليس من هواة القراءة أو الاطلاع، وأخشى أن يؤثر ذلك سلبًا عليه في المدى الطويل.

(شارد): ليس بالضرورة أن يكون كل الناس مهووسين بالدراسة والقراءة مثلي، هناك أناس يحبون أن يعيشوا حياةً طبيعيةً. قال جملته الأخيرة وهو يضحك ضحكةً خفيفةً.

عند تلك النقطة أنهت (منى) النقاش معه في موضوع ذلك الشخص الذي تقدم لخطبتها والذي علم لاحقًا أنها رفضته، وقتها شاهد في عينيها نظرة غضب وعلى وجهها ملامح انفعال، وهي ملامح ونظرات فسرها وقتها بأنها ناتجة عن توترها من مشروع تلك الخطبة، وأيضًا عن كونه يدافع عن العريس المنتظر ولا يتفهم أوجه اعتراضها.

أنهى فنجان الشاي، ثم ارتدى ملابسه وركب سيارته متجهًا إلى عمله، وأثناء قيادته للسيارة في شوارع (القاهرة) الفارغة تقريبًا

من المارة والسيارات استرجع حواراً دار مع (منى) منذ بضعة أشهر وقبل أيام من لقائها بزوجها الحالي.

كانت ساعات الدوام على وشك الانتهاء عندما بادرته (منى) بالحديث أثناء وجودهما في المكتب.

(منى): هل يمكن أن تقوم بتوصيلي اليوم ؟ فسيارتي معطلة ولم آتِ اليومَ بها.

(شارد): بالتأكيد.

ثم نزلا معًا في المصعد الكهربائي إلى المرآب (الجراج)، وركبا سيارته، وفي الطريق إلى منزلها سألته (منى): ألم تلاحظ أن سيارتي غير موجودة في المرآب؟ فعادةً أنا أصل إلى العمل قبلك وأقوم بصفّ سيارتي في المكان المجاور لك.

(شارد): لا، في الحقيقة أنا لم ألاحظ.

(منى): عجيب! رغم أن هذا الأمر يتكرر يوميًا منذ نحو ثلاث سنوات، أي منذ أن ابتعت أنا سيارتي.

(شارد): لا، لم ألاحظ، أنت تعرفين أنني لا أهتم بتلك الأمور ولا ألاحظها.

(منى): ما هي تلك الأمور التي لا تهتم بها ولا تلاحظها؟

(شارد): لا أهتم بتفاصيل من نوعية من يصفُّ سيارته بجوار من، وما هي الأماكن المخصصة لكل فرد، ومن قال ماذا، وهكذا.

(منى): أي أنك لا تلاحظ ولا تهتم بما أقول؟!

(شارد): بصراحة أنا أهتم بالأمور الأساسية فقط، أما التفاصيل فلا!

(منى): لقد توقعت ذلك! ولكن لي عندك سؤال آخر.

(شارد) مبتسمًا: تفضلي.

(منى): هل تلاحظ وتهتم بما تقوله أنت؟!

(شارد) مندهشًا: بالتأكيد! ولكنني لا أعرف المغزى من سؤالك.

(منى): سأكرر السؤال بطريقة أخرى، هل تفهم نفسك؟! هل تعرف حقًا ما تريده؟! أم أنك تعتبر ذلك من التفاصيل الممكن التغاضي

عنه !؟! إذا كنت حقًا تلاحظ وتفهم ما تقوله للآخرين كما قلت فهذا يعني أنك تفهم نفسك وتعرف ما تريد، ولكنني في أحيان كثيرة أحس أنك لا تفهم نفسك لأنك كثيراً ما تقول وتفعل أشياء معينةً أُدْرِكُ بعدها أنك لا تعي مغزاها. ثم أضافت بعد ثوانٍ من الصمت: بالإضافة إلى أنك أ حيانًا تهتم بتفاصيل دقيقة فقط إذا وَافَقَت هواك.

صمت (شارد) ولم يُعَلِّق وإن كانت ظهرت على وجهه علامات دهشة وتعجب.

تابعت (منى) كلامها: سأعطيك مثالًا واحدًا لاحظت أنت فيه بعض التفاصيل واهتممت بها لأثبت لك وجهة نظري.

(شارد): حسنًا، تفضلي.

(منى): منذ بضعة أشه ر وصلتَ العملَ متأخرًا، وكانت هناك سيارة أخرى تقف في المكان المخصص لسيارتك، وعندها لاحظتَ بالطبع وانفعلت ولم تهدأ إلا عندما اعتذر لك كل العاملون بالمرآب ووعدوك بعدم تكرار ذلك.

(شارد): أجل أتذكر ذلك الموقف.

(منى): هل تريد مني أن أعطيك مثالًا آخر؟ ولكن هذه المرة لكي أثبت لك أنك لا تهتم بما تقول ولا تدرك أبعاده، وربما أيضًا لا تفهم نفسك!

(شارد) باهتمام: حسنًا.

(منى): هل تذكر حوارنا معًا منذ بضعة أعوام عندما جاءك عرض للعمل في شركة منافسة وطلبت رأيي في ذلك الأمر؟

(شارد): أجل، أتذكر ذلك وأتذكر اعتراضك أيضًا، بالإضافة إلى أنكِ وصفتِ ما أفعله بالتشتت وليس الطموح.

(منى): هل تتذكر ما قلته لي وقتها عن أسباب طلبك رأيي أنا بالذات؟

فأجابها (شارد) بعد برهة من الصمت: لا، لا أتذكر.

صمتت (منى) وظهرت على وجهها بعض علامات خيبة الأمل والحزن، أثناء ذلك كان (شارد) يقترب من الشارع الذي تسكن فيه (منى).

(منى): هل تتذكر أين أسكن أم ستسألني مثل كل مرة؟

(شارد) ضاحكًا: أظن أنني أتذكر، إنه الشارع التالي يمينًا، أليس كذلك؟

(منى): نعم، صحيح.

صمتت (منى) قليلًا ثم قالت: يوجد أشخاص انتقائيون في الملاحظة والتذكر، ألا تتفق معي في ذلك؟

(شارد): نعم، يلاحظون أشياء ويغفلون عن أشياء أخرى، ويتذكرون أمورًا وينسون أخرى، أعرف منهم الكثير ولكنني لا أفهم لماذا يفعلون ذلك، ولا أعرف هل يتعمدون ذلك أم أنه طبع فيهم.

(منى): أعتقد أنهم يفعلون ذلك من منطلق أنهم لا يفهمون أنفسهم ولا يعرفون حقا ما يريدون، ففي هذه الحالة تكون ذاكرتهم انتقائيةً أو بالأصح عشوائيةً، وهذا يؤثر أيضًا في بعض تصرفاتهم وردود أفعالهم فتصيبها بعض العشوائية وعدم الانتظام.

(شارد): وهل يمكن للشخص ألا يعرف ما يريده؟

(منى): نعم، من الممكن جدًا، عندما يكون مشتتًا بلا هدف، أو عندما يكون مهتمًا بنفسه فقط ولا يرى في الدنيا إلا نفسه، أو عندما ينطبق

عليه هذان الوضعان معًا، عندئذٍ من الممكن أن يكون مفتاح سعادته بين يديه ولكنه لا يدرك ذلك!

(شارد): أشفق كثيراً على شخص كهذا!

(منى): نعم، أشفق كثيراً على شخص لا يعرف ما يريده وبالأخص إن كان لا يعرف أنه لا يعرف!

عند تلك الجملة التي قالتها (منى) انتهى ذلك الحوار، وفي نفس الوقت تقريبًا وصلت السيارة أمام منزلها ثم ودعته وصعدت إلى شقتها، كانت هذه آخر مرة يقوم (شارد) فيها بتوصيلها إلى بيتها وتكاد تكون آخر مرة يدور فيها بينهما نقاش مُطَوَّلٌ في أي موضوع.

عاد (شارد) إلى واقعه ونظر بعدها إلى الطريق بمزيد من التركيز، أحس بشيء غير طبيعي، فالشوارع تكاد تكون خاليةً، كان على بعد أقل من مائة متر من مقر عمله عندما انتبه إلى أن اليوم هو الجمعة!

وقف بسيارته على جانب الطريق واستمر جالسًا في صمت خلف مقود سيارته لعدة دقائق، لم يكن في ذهنه خلالها سوى شيء واحد هو الجملة الأخيرة التي قالتها له (منى) في آخر ما تذكر من

حواراتهما: "نعم، أشفق كثيراً على شخص لا يعرف ما يريده وبالأخص إن كان لا يعرف أنه لا يعرف"

obeikandl.com

عقلية شرقية

جلس وحيدًا في أحد المقاهي، وظل لفترة غير قادر على التفكير في شيء، والأسوأ أنه كان غير قادر على الإحساس بشيء، بدت حياته وكأنها مجرد سراب، كأنما كانت مشاعره تنتظر شيئًا ما ولم يأت، وكأنما كان عقله يحاول القفز فوق الحاضر منتظرًا شيئًا ما فيما يأتي من زمن.

بعد ثلاث ساعات من الجلوس ساكنًا صامتًا ترك المقهى ثم تحرك هائمًا على وجهه، سار على الرصيف في طريق موازٍ لنهر النيل، ترك الهواء يداعب وجهه بقوة أحيانًا وبهدوء أحيانًا أخرى، لم يحرك الطقس الجميل شيئًا في أحاسيسه أو أعماقه أو أفكاره، واصل السير موازيًا لنهر النيل لساعة كاملة ثم عاد إلى بيته، جلس بعدها عدة ساعات أمام ا لتلفاز ثم غَطَّ في نوم عميق.

كان ما سبق يمثل نموذجًا للنصف الثاني من كل يوم عمل في حياته، وذلك بعد انتهائه من عمله الحكومي في الثانية بعد الظهر

حتى نومه. يوم يتكرر منذ سنوات طويلة ودومًا أي جديد، وكأنه نفس الصفحة من الكتاب يقرؤها كل يوم، نفس الطريق يسير فيه كل يوم، نفس الشقة نفس الأماكن نفس الأشياء نفس الناس، لا جديد ولا تجديد، حياة يحاول أن يختلق لها معنىً عن طريق ما يمليه عليه المجتمع من أفكار وقيم مثل أن رسالته في الحياة هي أن يربي أبناءه أو أن سنة الحياة هي أن نفني أعمارنا من أجل أولادنا. كلام كان يردده أحيانًا أمام الناس وأحيانًا أمام نفسه محاولًا إقناع نفسه به، ولكنه كلام ظل يلامس سطح تفكيره دون أن يتسرب إلى أعماقه، ودون أن يمثل له قيمةً فعليةً أو معنىً ملموسًا.

استيقظ (عربي) في صباح اليوم التالي ثم ذهب إلى عمله، سار في نفس الطريق بعد أن استيقظ في نفس الموعد ليذهب إلى نفس العمل ويقابل نفس الأشخاص، نفس تسلسل وتتابع الأحداث ليومه، وهو تتابع يتكرر منذ ثلاثة وثلاثين عامًا أي منذ تخرجه في الجامعة ثم تسلمه وظيفته الحكومية بعدها بشهرين، ثم زواجه من ابنة عمه بعدها بشهرين آخرين، واستمرار إقامته في بيت عائلته بعد الزواج.

الشيء الوحيد الذي اختلف هو أن خطواته أصبحت أبطأ وحركته أثقل وتفكيره أكثر تصلبًا وذهنه أكثر غيابًا، فسنوات عمره

التي جاوزت الخمسة والخمسين أضحت تأثيراتها واضحةً عليه جسدًا وفكرًا وروحًا.

بعد أن انتهى دوامه في تمام الساعة الثانية بعد الظهر، خرج من عمله متجهًا إلى بيته، وبعد تناوله طعام الغداء بَدَّلَ ثيابه ثم ذهب إلى المقهى حيث اعتاد الجلوس.

وقبل وصوله إلى المقهى ببضعة أمتار توقف لثوان، لم يكمل الخطوات المتبقية التي تفصله عن المقهى، لم يحس برغبة في مواصلة السير، نظر إلى طاولته وكرسيه اللذين جلس عليهما بشكل شبه يومي لما يزيد عن الثلاثين عامًا ولكنه لم يكمل السير في اتجاههما، نظر إليهما ثم جال ببصره في المقهى ليشاهد تقريبًا نفس الوجوه المعتادة، وقد كان بعضها ينظر إليه منتظرًا أو متوقعًا عبوره الطريق ثم جلوسه في مكانه المفضل، إلا أنه لم يفعل، لم يعبر الطريق ولم يخط الخطوات المتبقية التي تفصله عن المقهى، وإنما أكمل السير في طريقه تاركًا المقهى على يساره، وتاركًا بعض من في المقهى ينظرون إليه بتعجب لبضع لحظات، قبل أن يعود بعدها كل منهم لشأنه ويفقد الاهتمام بمتابعة النظر إليه.

لم يكن في ذهنه شيء محدد يفعله أو مكان يهدف إلى الذهاب إليه أو شخص معين يسعى لرؤيته، فقط استمر في السّيْر في نفس الطريق دونما خطة أو هدف لما يفعله.

واصل طريقه ومر بجوار المحال المتواضعة التي تعرض في واجهاتها مختلف أنواع السلع متدنية الجودة من ملابس وأدوات منزلية وخلافه، سار لما يقرب من نصف ساعة في ذلك الطريق الطويل الذي يربط الحي الشعبي الذي يسكن فيه بأحد أحياء (القاهرة) الراقية، ومع الوقت كان مستوى المحال يرتفع وجودة السلع المعروضة تزداد، وهيئة الزبائن تختلف وأنواع العطور التي تفوح منهم ترتقي.

وقف أمام أحد المحال التي تبيع عطورًا مقلدةً لأشهر الماركات العالمية، أعجبته الرائحة المنبعثة من المحل، أخذ شهيقًا عميقًا ليملأ صدره بها، فقد كانت رائحةً زكيةً ولكنها غير محددة، فهي خليط من كثير من أنواع العطور، بدت له هذه الرائحة وهذا المحل وكأنهما تجسيد مصغر لحال هذا الشارع الذي يسير فيه، فالشارع عبارة عن خليط غريب من آلاف البشر ذوي مشارب وثقافات

ومستويات اجتماعية مختلفة، على الرغم من أن المسافة بين أول الشارع وآخره لا تتجاوز الثلاثة كيلومترات.

استمر في السير لمدة خمس وعشرين دقيقةً أخرى حتى وصل إلى نهاية الشارع، كان الشارع ينتهي في ميدان كبير يعتبر بدايةً لأحد الأحياء الراقية، وقف بجوار الفندق ذي النجوم الخمسة الذي يقع في نهاية الشارع، جال ببصره فوجد مقهى صغيراً هادئًا داخل الفندق ولكنه يطل على الميدان، فدخل وجلس في المقهى.

لم يكن قد شاهد هذا الجانب من الشارع منذ سنوات وسنوات، بالإضافة إلى أنه لم يجد لمس في هذا الفندق مطلقًا قبل ذلك، وربما لم يمر من هذا الميدان إلا نادرًا، وحتى إن مر فيه أثناء ركوبه إحدى وسائل المواصلات فقد كان يتجاوزه دونما تركيز أو تدقيق.

طلب من النادل فنجانًا من الشاي، وهو نفس الطلب الذي اعتاده عندما كان يجلس في مكانه المفضل على مقهاه الشعبي، شرب الشاي بهدوء مراقبًا ما يحدث حوله، كان الناس يمشون مسرعين، كلٌ يسارع الخطى باتجاه ما، حتى السيارات كانت تتحرك بسرعة وكأنما تتسابق للحاق بموعد ما، كان كل من وما حوله يتحرك بانطلاق وحيوية وسرعة إلا هو، فقد كان ساكنًا وخاملًا جسدًا وروحًا وفكرًا.

وفجأةً، وجد سيدةً تقترب منه، سألته السيدة: هل معك عود ثقاب أو ولاعة لأشعل بها سيجارتي؟

فأجابها: كلا للأسف، فأنا لا أدخن.

أعاد له هذا الموقف ذكرى مضت منذ خمسة وعشرين عامًا تقريبًا، ذكرى كان قد دفنها في أعماق ذاكرته وتناساها مع مرور الزمن وفاءً لزوجته أو خوفًا من الله أو ربما خوفًا من نفسه!!

عاد بقطار الذاكرة خمسةً وعشرين عامًا تقريبًا، عاد حيث أولى محاولاته لعبور هذا الطريق ذي الكيلومترات الثلاث. كان الجو شتاءً والطقس باردًا والأمطار تتساقط بهدوء دون غزارة، أحب يومها فكرة السير تحت مياه الأمطار الخفيفة، فتجاوز مقهاه الشعبي المفضل ومشى في الطريق حتى نهايته، وقتها كانت الأضواء أكثر خفوتًا والطريق أقل ازدحامًا والرصيف مخصصًا للمارة دون الباعة، وعندما وصل إلى نهاية الطريق جال ببصره في الميدان، فوجد إحدى الكافيتيريات الراقية، وهي تقع حاليًا أمام الفندق في الجانب الآخر من الميدان، فعبر الميدان ثم جلس في تلك الكافيتيريا، اختار إحدى الطاولات المطلة على الميدان لكي يراقب ويستمتع بمنظر هطول الأمطار الخفيفة، وأثناء جلوسه وهو يشرب فنجانًا من الشاي، اقتربت

منه بهدوء سيدة في ريعان شبابها، قوام جميل مغر، شعر يتطاير - بفعل تيارات هواء الشتاء التي دخلت المكان من النوافذ المفتوحة- ليضفي على وجهها المزيد من ملامح الأنوثة، ابتسامة تعكس كل المعاني الجميلة في الحياة، سيقان ممشوقة تزداد إثارةً بكعب عال، ولون أظافر أحمر قانٍ، سألته وهي تشير إلى سيجارة في يدها: هل لديك عود ثقاب أو ولاعة؟

فأجاب: للأسف لا، فأنا لا أدخن.

فقالت له: آسفة لإزعاجك، ثم عادت إلى حيث تجلس.

تابعتها عيناه وهي تمشي بهدوء وثقة عدة خطوات حتى وصلت إلى طاولتها التي تفصلها عن طاولته ثلاثة أمتار لا غير، أعجبه جمالها الأخاذ وأسلوبها الجريء في اختيار ملابسها، لم ينزل عيناه من عليها إلى أن جلست، حاول أن يحدق في تفاصيل وجهها حيث منعته المفاجأة من التحديق وكذلك منعه الإحراج من الاسترسال في النظر عندما كانت قريبةً منه.

انبهر بعينيها الواسعتين ذواتي النظرات الجريئة والواثقة، وأضاف شعرها القصير المزيد من الجرأة إلى ملامحها، ثم أشعلت

سيجارتها عن طريق ولاعة أعطاها لها أحد رواد الكافيتيريا، فأضفى مشهد استقرار السيجارة في فمها المزيد من الأنوثة الجريئة عليها وعلى تصرفاتها.

أخذت تقرأ كتابًا كانت تضعه أمامها على الطاولة، ولاحظ (عربي) أنها كانت السيدة الوحيدة التي تجلس في تلك الكافيتيريا، ففي ذلك الوقت وحتى في كافيتيريات الدرجة الأولى والتي تقع في الأحياء الراقية، لم يكن من المعتاد رؤية الكثير من السيدات يجلسن فيها.

اختلس النظر إليها بحيث يبدو وكأنه ينظر إلى الميدان، اختلس نظراتٍ إلى وجهها وهى تقرأ ثم بعض النظرات إلى ساقيها اللتين ظهر جزء كبير منهما من تحت تنورتها القصيرة.

وبعد عدة دقائق لاحظ أنها اعتدلت في جلستها بحيث حاولت تغطية جزء أكبر من ساقيها، فاستنتج أنها لاحظته فأصابه بعض الحرج، عندئذ توقف عن اختلاس النظرات إليها واستمر ينظر إلى الميدان بما فيه ومن فيه.

وبعد برهة من الوقت، وجدها تترك كتابها مفتوحًا وتتحرك في اتجاهه إلى أن وصلت إليه، ثم قالت له: هل لديك مانع أن تسير معي إلى المطعم الموجود في العمارة المجاورة؟

فوجئ بسؤالها ثم قال: أي مطعم؟!

فأضافت بثقة: المطعم الكائن في العمارة المجاورة لنا، فأنا مدعوة على العشاء بعد ربع ساعة ومدخل المطعم يقع في الشارع الجانبي المظلم، وأخاف أن أذهب وحدي فالشوارع تقريبًا خالية.

فقال لها وهو في حيرة من أمره: حسنًا، متى تريدين الذهاب؟

فقالت له: الساعة الآن السابعة إلا ربعًا، نستطيع أن نتحرك الآن.

فقال لها: حسنًا.

لم يكن يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول، ترك نفسه يوافق لأنه لم يجد سببًا للاعتراض أو لم يحاول أن يجد!

ربما انبهر بجرأتها أو بجمالها أو بالاثنين معا، ولكنه في جميع الأحوال لم يكن قد أدرك بعد كل أبعاد ما يحدث.

دفع كل منهما حسابه ثم سار بصحبتها إلى المطعم المذكور، وفور خروجهما من الكافيتيريا قالت له: لو لم أبدأ أنا بالحديث معك هل كنت ستكتفي بالنظر إليّ لساعات دون أن تفعل شيئًا؟!

فقال لها متفاجئًا: ماذا...؟ أنا لم أكن أنظر... أنا...

فقالت له: كل من في الكافيتيريا قد لاحظ نظراتك ولست أنا فقط، عمومًا لم تزعجني النظرات بقدر انزعاجي من أنك لم تكن تفعل غيرها!

صمت تمامًا، لم يكن يدرك ما الذي يحدث ولم يفكر فيما يمكنه قوله، تساءل في نفسه: من تكون هذه الفتاة؟! وكيف تتصرف بهذه الجرأة؟!

ثم قالت له بعد أن تحركت في اتجاه البناية المجاورة: حسنًا، ليست هذه أول مرة أراك فيها، فأنت تعمل مهندسًا معماريًا في وزارة الإ سكان، ولقد رأيتك مرتين آخرهما منذ شهر تقريبًا أثناء وجودي في الوزارة لإنهاء بعض الأوراق. ثم أضافت: أنا أعمل في إحدى شركات المقاولات الخاصة التي تتعامل مع وزارة الإسكان.

فقال لها: أنا لا أذكر أنني رأيتك قبل الآن.

فقالت وهي تبتسم ابتسامة خفيفة: لا أعتقد أنك رأيتني، فأنت لم تكن ترفع رأسك من فوق مكتبك، وهذا أيضًا ما قاله عنك زملاؤك بالإضافة إلى إشادتهم بعملك.

أصابه بعض الخجل ثم حاول التعليق على كلامها قائلا: نعم، فأنا...

فأكملت دون أن تنتظر منه إكمال جملته: بالتأكيد أنا لست من نوعية السيدات اللاتي من الممكن أن يتحدثن بسهولة وحرية مع رجل غريب عنهن تمامًا ولا يعرفن عنه شيئًا.

كانا قد وصلا إلى المطعم الكائن في العمارة المجاورة للكافيتيريا، وبعد أن توقفا أمامه قالت له: هل ستدعوني إلى العشاء أم لا؟

فأجابها: لقد أخبرتني أنك مدعوة إلى العشاء!

فقالت بثقة وابتسامة: نعم، من الممكن أن أكون مدعوةً إلى العشاء... لو قمت أنت بدعوتي الآن!

لم يجد كلامًا يقوله، فقد أحس أنه منقاد لها منذ أن رآها ويزداد انقياده لها مع مرور الوقت، فأشار لها بيده في اتجاه المطعم ثم قال: تفضلي.

دخلا إلى المطعم، واختارت هي طاولةً في أقصى المطعم بعيدة عن جميع الجالسين، اختارت بنفسها طبقها ثم اختار هو طبقه.

وفي أثناء انتظارهما الطعام قال لها: أرى أنك تقررين كل شيء بنفسك وتحددين كل شيء على هواك بما في ذلك توجيه دفة الحوار بيننا، ولكن هل أستطيع أن أسالكِ سؤالًا على سبيل التغيير؟!

فابتسمت قائلة: طبعًا.

فسألها: ما هو اسمك؟

فضحكت قائلة: (نيڤين).

ابتسم قائلًا: تشرفنا، وماهي وظيفتك؟

فابتسمت قائلة: لقد أصبحا سؤالين الآن! ثم أكملت: أعمل محاسبةً في شركة المقاولات التي أنجزت الأعمال الميكانيكية في مشروعكم الذي انتهى هذا العام في (بني سويف).

فقال (عربي): وأستنتج من ذلك ومن زيارتك إلى الوزارة أنكِ المسؤولة عن مراجعة وتحصيل المستخلصات، أليس كذلك؟

فأجابت: بالضبط، أنا أعمل معهم منذ تخرجي أي منذ ثماني سنوات، ولقد بدأنا العمل مع وزارتكم منذ عام واحد فقط.

كان قد استجمع نفسه ورَتَّبَ بعضًا من أفكاره ثم سألها بوضوح: ولماذا أردتِ أن نخرج معا؟

فقالت له بهدوء: أريد أن أتعرف عليك، فتصميماتك الهندسية المميزة وكذلك إشادة الجميع بك في الوزارة جعلاني متشوقة لمعرفتك، وعندما شاهدتك في الكافيتيريا قررت أن أنتهز الفرصة.

أجاب بهدوء أيضًا وهو يشير إلى خاتم الزواج في خنصر يده اليسرى: ولكنني متزوج!

فأجابت بثقة: لم أقل إنني أريد أن أتزوجك! أنا أريد التعرف عليك فقط.

فقال لها: لماذا؟

فقالت: لمعرفتك، وعندما شاهدتك في الكافيتيريا قررت أن أنتهز الفرصة. !... إلا إذا كنت لا تريد أن تتعرف عَلَيّ.

توقف الحوار بينهما عند هذه النقطة، فقد جاء النادل بطعام العشاء، وبعد أن وضع الأطباق أمامهما وانصرف، انهمكا في تناول الطعام وساد بينهما صمت لبضعة دقائق قبل أن تكسره (نيڤين): لم تجبني عن سؤالي، هل تريد أن تتعرف عَلَيّ أم لا؟

فقال لها: أصارحك القول بأن أسلوبك الجريء يصيبني ببعض القلق والتوتر.

فقالت: أعلم، فالرجال الشرقيون لا يفضلون السيدة التي تنافسهم في الجرأة والثقة، يريدون أن يجلسوا ويقرروا ويفعلوا ونحن نستسلم فقط، عمومًا أنا لست من ذلك النوع المستسلم.

فقال لها: لم يسبق لي يومًا معرفة امرأة مثلك، لذلك فإن إجابتي هي نعم، أريد أن أتعرف عليكِ.

فقالت مبتسمة: إجا بة جيدة ولكنني أتمنى ألا أكون حالةً دراسيةً بالنسبة لك.

فقال لها مبتسمًا: أعتقد أنني أنا الذي سأكون حالةً دراسيةً بالنسبة لك وليس العكس.

فسألته: لماذا؟

فأجاب: لأنني إنسان انطوائي وغير اجتماعي ومتزوج، ولا أعرف في هذه الدنيا سوى عملي الحكومي الذي رأيتني فيه وبيتي، والآن فجأةً قررت أن أتعرف على امرأة تمثل كل ما أنا لستُ عليه.

فقالت: ولنفس السبب سأكون أنا حالةً دراسيةً بالنسبة لك، فأنا سيدة متحررة رفضت الوظيفة الحكومية لأعمل في القطاع الخاص، لم أرغب في الزواج حتى لا يمثل قيدًا على حريتي، لا أتوقف عن السفر والسهر والتعرف على كل جديد في كل مكان، والآن قررت أن أتعرف على رجل يمثل كل ما أنا لستُ عليه.

فقال لها: حدثيني عن أسفارك وهواياتك.

فأجابته: موافقة، ولكن كلما أخبرتك شيئًا عن نفسي فعليك في المقابل أن تخبرني شيئًا عن نفسك.

فقال لها: لا مانع لَدَيّ، ولكن حياتي محدودة للغاية، لن تجدي فيها شيئًا يستحق أن أذكره أو أن أتذكره، عمومًا سأحاول أن أخبرك كل شيء.

وبدأ حوارهما معًا وأخذ كل منهما يخبر الآخر عن نفسه وطموحاته وهواياته وإحباطاته، ومع الوقت أصبح الحوار من جانب واحد، كانت (نيڤين) تحكي وتتكلم وتناقش وتسرد، ومع الوقت التزم (عربي) الصمت واكتفى بالإنصات، كان لديها كل شيء لتسرده ولم يكن لديه سوى الاستماع والانبهار.

أعجب بشخصيتها القوية وطموحاتها اللامحدودة، أخبرته عن أسفارها خارج الوطن، قراءاتها لكتب تعتبر من المحرمات في مجتمعاتنا، سهراتها، الحفلات التي تحضرها أو تنظمها، أصدقائها، وملابسها القصيرة والجريئة.

أحس أنه ليس أمام مجرد إنسان آخر بل هو أمام عالم آخر لم يكن يدري بوجوده، أحس أنه أمام فيض من مشاعر وأفكار وطموحات لا قِبَلَ له بها، أمام شخصية لا يستطيع أن يجاريها بأي شكل من الأشكال.

ازداد انجذابه إليها وتعلقه بها مع الوقت، دام حوارهما حتى العاشرة مساءً ثم دفع كل منهما حسابه -حيث أصرت هي على أن تدفع حسابها بنفسها- ثم انصرفا.

بعد خروجهما من المطعم طلبت منه أن يقوم بتوصيلها مشيًا إلى منزلها، كان الجو قد ازداد برودةً وإن كان المطر قد توقف، كما كانت حركة السيارات والمارة هادئةً.

استمرا يتجاذبان أطراف الحديث، وبعد بضعة دقائق وجد نفسه وبطريقة عفوية يمسك يدها اليسرى بيده اليمنى حيث كانت تسير على يمينه، اندهش من جرأته فلم يتوقع أن يفعل شيئًا كهذا، إلا أنه شعر بالراحة عندما وجدها لا تعترض، سأل نفسه سؤالًا صعبًا: هل ما يحدث هو بداية انجذاب جسدي؟ أم انجذاب روحي؟

لم يفكر كثيراً في الإجابة التفصيلية ولكنه أجاب إجابةً مختصرة وصادقة: إنه انجذاب وكفى!

تابعا سيرهما في اتجاه منزلها الذي يقع في قلب الحي الراقي الذي يمثل الميدان بدايته، ومع مرور الوقت واستمرار (نيڤين) في الكلام عن نفسها وحياتها وعالمها الأسطوري بالنسبة له، وجد نفسه يضع يده اليمنى بطريقة عفوية أيضًا على كتفها الأيمن وهو الأبعد عنه، وبعد لحظات أدرك أن ما يفعله -بالنسبة لمعاييره- يعتبر غير لائق فأنزل يده فوراً بحركة عصبية سريعة عن كتفها.

وفور أن فعل ذلك وجدها تنظر إليه مبتسمةً وتقول له: لا داعي لهذه العصبية، فأنا لم أطلب منك أن تنزل يدك!

ابتسم (عربي) بخجل ثم أمسك يدها وأكملا السير واسترسلا في الحديث، وبعد فترة قصيرة كان لا بد لهما من الانعطاف يميناً، وأثناء انعطافهما تباطأت قليلًا في الانعطاف بحيث ارتطم كتفه بكتفها، وبدا للحظة وكأنها ستفقد توازنها، فترك يدها ثم وضع يده اليمنى على كتفها الأيمن، وبعد أقل من ثانيتين وجدها تنظر إليه مبتسمة ثم تقول: من الممكن أن نكمل السير بهذه الطريقة!

ابتسم (عربي) واستمرا في السير ببطء بجانب بعضهما واضعًا يده اليمنى على كتفها الأيمن، لم يكن (عربي) يفكر في أي شيء فقد كان فقط يحس بالسعادة، أحس وهو يمشي ملاصقًا لـ(نيڤين) بأنه يحاول الاقتراب بقدر الإمكان من هذا العالم السحري المبهر، يحاول التوحد معه قدر المستطاع، ثم توقفت (نيڤين) أمام إحدى البنايات وقالت له: هذا هو بيتي.

نظر (عربي) لأعلى فوجد بناية فخمة مكونة من ثلاثة طوابق والطابق الأعلى فقط هو المضاء، ثم قالت له (نيڤين): هذه هي بنايتنا، أنا وعائلتي نسكن في الطابق الثالث والأخير، الطابق الأرضي هو مكتب المحاماة الخاص بوالدي وهو مغلق في هذا الوقت طبعًا، أما الطابقان الأول والثاني فهما مؤجران لعائلات تعمل في الخليج ويأتون لزيارة مصر في فصل الصيف فقط.

ثم سارت باتجاه باب البناية، تردد (عربي) في التحرك، فقالت له: هل من الممكن أن توصلني إلى المصعد؟!

تحرك (عربي) معها، دخلا من الباب ومشيا حتى وصلا إلى المصعد، وأمام المصعد وقفت ووضعت يدها في حقيبتها وأخرجت

ورقة وقلمًا، ثم كتبت له رقمًا على الورقة وأعطتها له بيدها اليسرى قائلة بابتسامة: هذا هو رقم البيت، سأنتظر مكالمتك.

أخذ منها (عربي) الورقة وأمسك يدها اليسرى وهو يمسك الورقة، مال ناحيتها قليلًا، اقترب منها وأحس بأنفاسها الحارة، نظر في عينيها، وجد هدوءًا وصفاءً وعدم ممانعة لما يجري، اقترب بشفتيه، أحس كأنما يعبر إلى عالم آخر أكثر جمالًا وسعادةً، أكثر صدقًا وعفويةً، أقل قيودًا وعوائق، لامست شفتاه شفتيها، أحس بشعور لم يحس به في حياته، أحس بنهر من السعادة يجري في جسده بدءًا من شفتيه، أحس بالزمن يتوقف وبالأحلام تقترب، أحس أنه دخل إلى عالمها بهدوء ودون اقتحام، أحس بأبواب من الفرح تفتح أمامه، لم تتجاوز قبلتهما حدود تلامس الشفاه ولم تستمر لأكثر من ثوان، ولكنها فتحت أمامه أبوابًا من المشاعر والأحاسيس لم يدرك يومًا وجودها.

بعد أن ابتعد بشفتيه قليلًا عنها، نظر في عينيها فأحس بسعادة في نظراتها وقليل من الارتباك، ثم تحركت بهدوء خطوةً صغيرةً في اتجاه المصعد، بعد ذلك فتحت الباب وقالت له: هذا اليوم أ سعد أيام حياتي، أنت لست انطوائيًا محدودًا كما تقول، أنت بركان

من المشاعر والأحلام، كل ما في الأمر أنك تحتاج من ينقب داخل عقلك وروحك، سأنتظر مكالمتك.

ثم أغلقت باب المصعد وارتفع بها المصعد إلى أعلى.

نظر (عربي) للمصعد وهو يتركه متجهًا لأعلى، وظل واقفًا حتى سمع صوت باب المصعد يُفتح ثم يُغلق، فأدرك أنها وصلت طابقها وخرجت من المصعد، ثم بعدها بثوان سمع صوت باب آخر يُفتح ويُغلق فأدرك أنها وصلت شقتها.

عاد (عربي) أدراجه مشيًا، سار في الاتجاه العكسي لنفس الطريق من بيتها إلى المطعم ثم إلى المقهى ثم عبر الميدان، وسلك الطريق ذا الكيلومترات الثلاث عودةً إلى منزله.

ظل طوال الطريق يفكر فيها، في سحر كلامها، وحماسها وحبها للحياة، في سفرها ورغبتها في التعرف على الدنيا، في قراءاتها وثقافتها، في جرأتها، في قبلتهما الهادئة الساحرة، استرجع مشاعره وأحاسيسه معها واستلذ بها وابتهج، ثم تركها تبحر به إلى شطآن من السعادة والفرح.

وصل إلى بيته ووجد زوجته في انتظاره، عاد إلى أرض الواقع أو بالأحرى أُجْبِرَ على العودة، بدأت زوجته تتحدث معه عن بعض شئون المنزل والعائلة، سأل عن الأولاد واطمأن على أنهم ناموا في الموعد المحدد، بدَّل ثيابه وجلس شارد الذهن في الصالة.

سألته زوجته: فيمَ تفكر؟

فأجاب: في بعض شئون العمل.

فقالت له: أنا مضطرة أن أتركك لأنام الآن، فأنا منهكة من الاهتمام بشئون المنزل والأولاد طيلة اليوم.

فقال لها: تصبحين على خير.

أجابت: وأنت من أهله.

جلس يفكر في هذه المرأة التي ظهرت له فجأةً وانتشلته من حالة السكون والتكرار الممل لأيامه وأفكاره ومشاعره وتحركاته ولحياته كلها، والتي جذبته لعالمها الساحر لمدة أربع ساعات تقريبًا، أحس بأن إحدى قدميه ثابتة وراسخة في عالمه المتكرر شديد الواقعية وقدمه الأخرى تكاد تخطو أولى الخطوات إلى ذلك العالم السحري

الجديد، جلس يحاور نفسه ثم مشى جيئةً وذهاباً باضطراب في صالة منزله، نظر إلى غرفة الأولاد وغرفة زوجته، ثم نظر إلى ملف خاص بالعمل كان فوق إحدى الطاولات، هذه الأمور بالنسبة له هي الواقع الذي يعرفه ويألفه ويتوافق مع طريقته ومع مجتمعه وبيئته الشرقية المحافظة والمحدودة، ثم نظر إلى الورقة التي تحتوي على رقم الهاتف الخاص بـ(نيڤين) والتي ما زال يمسكها في يده، كانت هذه الورقة تمثل تذكرة المرور إلى عالم آخر مختلف، متجدد وغير محدود.

أخذ يفكر ويفكر ويقرر ثم يتراجع ثم يقرر مرةً أخرى حتى جاء وقت أذان الفجر، استمع إلى الأذان ثم توضأ، بعدها أدَّى صلاة الفجر، ثم جلس قليلًا يستغفر الله، ثم اتخذ قراره وهو على سجادة الصلاة، أيقن عند لحظة اتخاذه القرار أن حياته بعد هذا القرار -أيًّا كان- لن تكون مثل حياته قبله، قام من مجلسه بعد الصلاة، أمسك بالورقة المكتوب عليها رقم تليفون (نيڤين) ثم مزقها ورماها في سلة المهملات!

لم يستطع تخيل أنه سيكمل حياته مع هذه المرأة المتحررة الجريئة قط، أحبها وأحب جرأتها إلا أنه خاف منها، فضَّل الرجوع إلى القواعد المعروفة والمحددة سلفًا وعاد إلى حيث الرجال الشرقيين في

البيئة الشرقية والعقلية الشرقية، ثم دخل إلى غرفته لينام سويعاتٍ قليلةً قبل ذهابه إلى عمله.

بعد هذا اليوم تغيرت حياته تدريجيًا، يومًا بعد يوم، كان حماسه للعمل يقل، خطواته في الحركة تتثاقل، وسرعة أدائه لمهام عمله وحياته تنخفض، تسرب الملل والبطء إلى جسده وعقله وروحه رويدًا رويدًا، ابتعدت عنه الأحلام خطوةً خطوةً، خَفُت لديه وميض الطموح يومًا بعد يوم، وهكذا حتى انتهى به الأمر إلى حيث هو الآن.

انتهت رحلة ذكرياته، نظر من مقعده الذي يجلس عليه إلى الناحية الأخرى من الميدان، نظر إلى حيث جلس وتحدث مع (نيڤين) لأول مرة، استرسل في النظر لعله يجدها أو يجد طيفًا منها، ولكنه لم يجد (نيڤين) ولم يجد طيفًا أو أثرًا لها أو لأحلامها سواءً في ذلك المكان أو في حياته كلها.

جلس في حسرة وصمت ثم دفع الحساب وعاد أدراجه إلى منزله، عاد إلى حياته التي لم يعد يعرف أو يرى لها هدفًا ولا غرضًا، حياة صماء بلا هدف ولا ضوء ولا حافز ولا تجديد ولا معنى ينبع من ذاته.

رحلة في الاتجاه المعاكس

خرج من مكتب مديره وعلى وجهه علامات الاستياء، فقد أبلغ برفض إدارة الشركة التماسه الذي تقدم به معترضًا على قرار نقله للعمل في فرع الشركة بمدينة (الرياض)، أخبره مديره بأن فرع الشركة في (المملكة العربية السعودية) يواجه نفس المشكلات في نظم التشغيل التي واجهها فرع الشركة في (مصر) خلال العامين الماضيين، وأوضح له أنهم يريدون منه أن يتكفل بحل تلك المشكلات وأن ينفذ خطة تطوير شاملة لنظم تشغيل المعلومات بالشركة مماثلةً لتلك التي طبقها في مصانع الشركة في (مصر)، كما أكد له مديره بأن ثقتهم فيه

obeikandl.com

كبيرة وبأنهم يعتبرونه واحدًا من أفضل خبراء نظم التشغيل في الشركة ولذلك أوكلوه بتلك المهمة الصعبة التي ستستغرق منه نحو عامين.

شَعُر بالإحباط من المقابلة مع مديره؛ فقد كان يتمنى أن يوافقوا على التماسه، ومما زاد من شعوره بالإحباط أنه كان قد تقدم بطلب إلى إدارة الشركة لنقله إلى أحد الفروع في (أمريكا الشمالية) أو (غرب أوروبا)، وذلك قبل ساعات من علمه بقرار نقله إلى (الرياض).

بعد تلك المقابلة أمضى (حرب) شهرين في (القاهرة)، قضاهما في تسليم عمله إلى أحد الزملاء وأيضًا تجهيز المستندات اللازمة للسفر، ثم سافر إلى (الرياض) بعد أن استنفد كل التأجيلات والتأخيرات الممكنة.

وفي أول أيام عمله في فرع الشركة في (الرياض) استيقظ في تمام السابعة صباحًا شاعرًا ببعض التأفف متمنيًا ألا يبدأ اليوم، جلس بضع دقائق على سريره محاولًا أن يقنع نفسه بالقيام والاستعداد للذهاب إلى العمل، ثم بخطوات وحركات بطيئة استعد وارتدى ثيابه، ثم استقل سيارة أجرة من أمام المجمع السكني الذي يسكن فيه متجهًا إلى المقر الإداري للشركة.

وصل متأخراً نحو نصف ساعة، تَوَقَّع بعض التوبيخ أو على الأقل قليلًا من الامتعاض من مديره، إلا أ ن مديره لم يَبْدُ عليه أنه يبالي مطلقًا بمثل تلك الأمور، بل على العكس فقد رَحّبَ به وأوصله إلى مكتبه وقام بتعريفه بزملائه الجدد.

أمضى (حرب مراد) يومه الأول متوترًا، كأنه عصر طنًا من الليمون على نفسه ليوافق على أن ينتقل للإقامة والعمل في (الرياض)، حاول إخف اء توتره قدر الإمكان، بذل مجهودًا كبيرًا في أن يتعرف بزملائه الجدد، لاحظ أن موظفي الشركة يتوزعون بين جنسيات عدة؛ فمنهم الهنود والآسيويين بشكل عام وبعض الأوروبيين والأمريكيين، بالإضافة إلى بعض من المصريين والعرب عمومًا وقليل من أبناء (المملكة).

لم يكن (حرب) يتوقع رؤية هذا المزيج المتنوع من الكوادر المهنية، تعجب من نفسه ألا يتوقع ذلك وهو ابن من أبناء هذه الشركة متعددة الجنسيات، فعلى الرغم من أنه يعمل بها منذ سبع سنوات إلا أنه لم يفكر يومًا في معرفة ما يدور ويحدث في فرع (الرياض) أو غيرها من فروع الشركة في (الشرق الأوسط)، فقد كان جُلّ تركيزه هو متابعة أنشطة الشركة في (أوروبا) و(أمريكا الشمالية).

أنهى يوم عمله الأول ثم عاد إلى المجمع السكني الذي يقطن فيه، لم يكن قد مر على وصوله إلى (الرياض) أربع وعشرون ساعةً، فقد وصل مساء أمس ثم أوصلته سيارة استأجرتها له الشركة إلى المجمع السكني، وبعد أن تَسَلَّم شقته مكث بها ولم يبارحها حتى صباح اليوم.

بعد أن بَدَّلَ ثيابه وارتاح قليلًا قرر التجول داخل المجمع السكني، فما زال أمامه نحو ساعة قبل موعد المكالمة اليومية المتفق عليها مع زوجته عن طريق أحد برامج التواصل عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

تَجَوَّلَ في المناطق العامة داخل المجمع السكني الذي يعتبر واحدًا من أكبر المجمعات السكنية في (الرياض) بل وفي (المملكة السعودية) عمومًا، تَعَجَّبَ عندما وجد مظاهر حياة طبيعية وعادية ومتحضرة داخل المجمع، شاهد ملاعب تنس وحمامات سباحة وقاعة سينما، كما وقعت عيناه على سيدات من مختلف الجنسيات والأعمار يتحركن داخل المجمع بدون حجاب أو نقاب، وأيضًا مر على ما يشبه النادي الاجتماعي المصمم لقاطني المجمع وبه عدة مطاعم ومقاهٍ، وأيضًا وجد مكتبةً بها العديد من الكتب بمختلف اللغات.

استغرقته جولته ما يقرب من ساعة كاملة وبعدها عاد إلى شقته، ثم أجرى اتصاله مع زوجته صوتًا وصورةً عبر (الإنترنت)، وتَطَرّقَ حوارهما إلى ما شاهده اليوم من مظاهر حياة متحضرة داخل المجمع على غير ما توقع، فأجابته زوجته: لقد قال لك كثير من أقاربنا ومعارفنا إن الحياة داخل المجمعات السكنية في (المملكة) مختلفةً تمامًا عن الحياة خارجها ولكنك لم تكن تسمع أو تنصت، لقد كان جُلُّ اهتمامك أن تثبت لنفسك أن الحياة في (الرياض) ستكون صعبةً وأنك لن ترتاح فيها.

فَعَقَّبَ قائلًا: ربما يكون معك حق ولكن دعينا لا نتسرع، فأنا حتى الآن لا أعرف ظروف العمل هنا وأيضًا لم أعتد بَعْدُ على الحياة في (الرياض)، فيوم واحد لا يكفي للحكم على هكذا تجربة.

فقالت له زوجته: معك حق، فقط أطلب منك أن تخوض التجربة بعقل وقلب منفتحين، لا تحكم مسبقًا على التجربة بالفشل.

فقال لها: حسنًا، ولكنني أيضًا لن أحكم مسبقًا على التجربة بالنجاح.

فقالت: هذه منهجية تفكير سليمة، وعمومًا فقد اتفقنا على أن تمنح نفسك ثلاثة أشهر تختبر فيها حياتك الجديدة وتحاول التأقلم معها ثم بعد ذلك ستفكر وتقرر الخطوة التالية.

فقال لها: ثم بعد ذلك نفكر ونقرر معًا.

فابتسمت قائلةً: نعم يا حبيبي، نفكر ونقرر معًا.

أنهيا المكالمة ثم خَلَد بعدها للنوم؛ فقد كان لا يزال متعبًا من آثار السفر وما سبقه من تحضير للحقائب وما تلاه من تفريغ لمحتوياتها في شقته الجديدة، وهو لم يحظَ بقسطٍ كافٍ من النوم لثلاثة أيام متتالية؛ وذلك بسبب ظروف السفر وتوتره من فكرة انتقاله إلى (الرياض) والعمل بها.

في صباح اليوم التالي كان حريصًا على أن يصل إلى عمله في موعده، حاول أن يركز قدر الإمكان في عمله وألا يشغل ذهنه بأي شيء آخر، طرد كل الأفكار الأخرى من رأسه حتى أصبح ذهنه شبه صافٍ ليس به إلا العمل وحده.

يومًا بعد يوم أعجبه وأدهشه المستوى الاحترافي العالي لزملائه في الشركة، فكل شيء يسير تقريبًا وفقًا لكل القواعد والنظم

ومستويات جودة الأداء المُطَبّقَة في كل مراكز وفروع الشركة في (أمريكا الشمالية) و(أوروبا)، ولكن مع بعض الفروق الطفيفة نتيجة اختلاف الثقافات.

أسبوعًا بعد أسبوع بدأ يأخذ مكانةً متميزةً وسط زملائه، وبدأ يتفوق على الكثيرين من أقرانه؛ فهو بحكم عمله في الشركة منذ سبع سنوات ملم بكل تفاصيل العمل ومستويات الأداء المطلوبة، إضافةً إلى ذلك فهو يتفوق عليهم بأنه ابن للثقافة العربية الإسلامية التي تشكل المكون الثقافي الأعظم لوجدان أهل (المملكة) والعامل الأعمق تأثيراً في سكان هذا البلد؛ وبالتالي فهو أكثر قربًا لأبناء البلد من الناحية الفكرية وأكثر قدرةً على التواصل معهم، كل هذا أعطاه مزيَّةً نسبيةً حيث أصبح أكثر قابليةً على التفاعل مع المحيط الخارجي للشركة؛ مما مَكَّنَهُ من سرعة إنجاز العديد من المشاريع، وكذلك التغلب على العديد من المعوقات التي يصعب عادةً على زملائه من غير العرب والمسلمين تخطيها.

شهرًا بعد شهر بدأ يعتاد نمط الحياة الاجتماعية في (الرياض) بل ويعجب بها، فقد أصبح أكثر التزامًا بمظاهر التدين مثل انتظامه في الصلاة وحضور الدروس الدينية في المساجد، وأصبح يتبع المظاهر

السائدة في بعض الأمور الأخرى المحسوبة على الدين مثل إطالته للحيته بشكل خفيف واستخدامه للسواك وارتدائه للجلباب وبالذات عند الذهاب إلى المسجد للصلاة، وفي مقابل ذلك كان يتمتع بمظاهر حياة أكثر انفتاحًا وحريةً داخل المجمع السكني الذي يقطن فيه.

ومع مرور الوقت بدأت فكرة الهجرة إلى (أمريكا الشمالية) أو (أوروبا) تخبو وتنحسر، على الرغم من أنها ظلت مسيطرةً على تفكيره منذ بدء فترة مراهقته وحتى ما قبل مجيئه إلى (الرياض)، تاركةً مكانها في عقله لفكرة أخرى معاكسة تمامًا وهي التخطيط للعيش بشكل دائم في (المملكة).

في مساء آخر يوم عمل من الشهور الثلاثة المتفق عليها مع زوجته، أجرى معها اتصالًا مرئيًا عبر شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وبعد تبادل كلمات الحب والاشتياق قالت له زوجته: هل وصلت إلى قرار؟

(حرب): أجل، أظن ذلك.

الزوجة: وما هو قرارك؟

(حرب): سأستمر في (الرياض)، لقد أعجبني العمل وكذلك أعجبتني الحياة هنا.

الزوجة: لقد توقعت ذلك.

(حرب) متعجبًا: لماذا؟ رغم أنني كنت أتكلم دائمًا عن رغبتي في الهجرة إلى الغرب وليس إلى الشرق!

الزوجة: هذا صحيح، فكلامك دائمًا كان عن الهجرة إلى الغرب، ولكن أفعالك كلها كانت في الاتجاه المعاكس.

(حرب): وكيف هذا؟!

الزوجة: يا زوجي الحبيب، إنني أعرفك أكثر من نفسك، فأنت تتكلم دائمًا عن حقوق المرأة في الغرب إلا أنك حين أردت الزواج اخترتني أنا، وأنا محجبة وأنتمي إلى عائلة محافظة.

صمت (حرب) ولم يعقب.

obeikandl.com

أضافت زوجته: أنت تتكلم كثيراً وبإعجاب وانبهار عن الحرية الشخصية الموجودة في الغرب، ولكنك محافظ جدًا ولم يكن لك يومًا علاقات نسائية، بالإضافة إلى أنك لا تشرب الخمور مثلًا، أليس كذلك؟

حرب باقتضاب: نعم، هذا صحيح.

تابعت الزوجة كلامها: كنت تُعْجَب كثيراً بالديمقراطية في الغرب ولكنك لم تمار سها مطلقًا داخل بيتنا، فأنت تَدَّعي دائمًا أنك تستمع إلى آرائي وتستأنس بها وتتصنع المناقشات معي وكأنك تهتم لما أقول، إلا أنك في النهاية لا تقرر وتفعل إلا ما تريد، ولم يحدث أنك أخذت برأيي ولو مرة واحدة طيلة سنوات زواجنا. ثم أضافت: ثم إنك رفضت الديمقراطية عندما طُبِّقَت في بلادنا وجاءت بمن لايعجبك إلى الحكم، أليس كذلك يا زوجي الحبيب؟

صمت (حرب) ولكنه أومأ برأسه موافقًا.

واصلت زوجته كلامها: وأنت من كبار المعجبين بحرية الإعلام في الغرب ولكنك دائمًا تنتفض غضبًا إذا قرأت مقالًا لا يعجبك ويمس ما تظنه ثوابت في ديننا، بالإضافة إلى أنك تغضب أيضًا إذا وجدت مشهدًا ساخنًا في عمل درامي يُعْرَض على إحدى القنوات التليفزيونية،

وفي مثل تلك الحالات تتساءل: "كيف يسمحون بنشر هكذا مقال؟ أو كيف يسمحون ببث هكذا مشهد؟".

احتفظ (حرب) بصمته وإن ظهرت على وجهه ابتسامة تعكس كثيراً من الاقتناع بكلام زوجته.

ثم أضافت زوجته: وأيضًا كنت كثيراً لا تنتظم في صلاتك وصومك ولكنك كنت تقول دائمًا إنك تحتاج إلى جَوٍّ عام يجبرك على اتباع تلك المظاهر. ثم صمتت برهة وبعد ذلك قالت: باختصار كان كلامك في اتجاه الغرب وحرياته ولكن كانت أفعالك دائمًا في اتجاه الشرق وتحفظاته.

صمت (حرب) لفترة، فقد تذكر أقواله وانتبه كيف أنها كانت مناقضةً لأفعاله، نظر إلى شريط ذكرياته فبدا له وكأن الأقوال لشخص والتصرفات لشخص آخر مختلف تمام الاختلاف عن الأول، كانت أقواله تسير في اتجاه معاكس لأفعاله، تعجب كثيراً كيف لم ينتبه لهذا من قبل، ثم قال: معك حق، يبدو أن الدنيا تعطينا ما يقبع في أعماقنا لأنه ما نريده حقًا، ولا تعطينا ما يطفو فوق سطح شخصياتنا لأنه عبارة عن قشرة زائفة تجبرنا الحياة كثيراً على اصطناعها لنوهم أنفسنا بأمور ليست لنا أو منا.

obeikandl.com

ذكريات من الجانب الآخر

ظل (رحيل) طوال ثلاث أو أربع ساعات يحاول جمع شتات نفسه، كان غير قادر على التركيز من هول المفاجأة وقوة الصدمة، مدى رؤيته لا يتجاوز المترين على أقصى تقدير، ولا يكاد يسمع إلا أصواتًا خافتةً وإن كان لا يستطيع أن يتبين معناها، وجد نفسه جالسًا على الأرض منهكًا للغاية ولا يستطيع رفع قدميه لينهض، حاول كثيراً أن يقف ولكنه لم يستطع فقرر الاستسلام لحالة الإرهاق الشديد التي هو عليها وظل مستقراً في مكانه، مرةً أخرى، حاول أن يجول ببصره يميناً ويساراً لعله يرى شيئًا، ولكنه لم يتمكن من رؤية أي شيء نتيجةً للضباب الكثيف الذي يغشى المكان.

تعب كثيراً من محاولاته الفاشلة للنهوض أو للرؤية أو للسمع أو حتى لفهم أي شيء يجري من حوله طيلة الساعات الثلاث أو الأربع الماضية، وأتعبته أيضًا بعض الآلام التي يشعر بها وإن كان لم يستطع تحديد مكانها بدقة.

قرر أن يترك كل ذلك وأن يحول تركيزه إلى شيء آخر، - قرر وكان نادرًا ما يقرر- أن يحاول تذكر مواقف مشابهةً مرت به، لعلها تساعده في فهم ما هو فيه.

عاد بذاكرته إلى أيام الطفولة، عندما كان عمره ما يقرب من ست أو سبع سنوات، كان كثيراً ما يجلس وحيدًا ومتعبًا جسديًّا وذهنيّا بعد نوبات م ن الضرب كان يتعرض لها سواءً من والده أو والدته، وقتها -وبحكم صغر عمره ومحدودية إدراكه- كان مدى رؤيته المجَازِي لا يتجاوز المترين أيضًا، كما كان لا يسمع شيئًا مفيدًا بعد نوبات الضرب تلك.

استمر في رحلته الذهنية إلى الماضي، حاول أن يتبين أسباب تلك النوبات فلم يصل إلى شيء يستحق الذكر، مجرد ألعاب صبيانية وشقاوة أطفال كالمعتاد ممن هم في مثل تلك الفترة من العمر.

كان إحساسه بعد انتهاء كل نوبة ضرب مشابهًا إلى حد كبير لإحساسه في الوقت الحالي، فقد كان يحس بضيق شديد في الصدر وكأنما الدنيا قد أطبقت عليه، وكان يشعر وكأنما الزمن قد توقف به عند نقطة ضبابية لا مستقبل لها مثلما هي حاله الآن، والأهم أن تكرار تلك النوبات كان يسبب له حالةً من عدم قبول ذاته ورغبةً في

الرحيل عن شيء ما، وهي رغبة لم يفهمها وقتها ولم يدرك كامل أبعادها لكنه يتذكرها بوضوح شديد، كانت رغبةً في الرحيل والابتعاد، ربما عن الموقف نفسه، ربما عن أهله، ربما عن الناس أجمعين، وربما عن نفسه.

عاد إلى واقعه، حاول التحرك فلم يستطع كالعادة، حاول أن يرى أو يسمع أي شيء فلم يتمكن، قرر أن يعود إلى الماضي بذهنه مرةً أخرى، لعله يستطيع استعادة مواقف أخرى مشابهة لما هو فيه الآن بحيث تعينه على فهم وإدراك ما يحدث.

عاد بذاكرته إلى الوراء عندما كان في العاشرة أو الحادية عشرة من عمره، وجد نفسه جالسًا على الأرض في وضع مشابه لوضعه الحالي، وحيدًا منهكًا غير قادر على التحرك وغير مدرك لما يحدث حوله، حدث ذلك كثيراً في المدرسة عندما كان أقرانه يسخرون منه بسبب وبدون سبب، وهي سخرية تنتهي غالبًا بتعرضه لموجات من الضرب والإهانة مماثلة لنوبات الضرب التي كان يتعرض لها في المنزل.

لم يفهم وقتها سبب تعرضه لكل هذا الضرب، وإن كان الربط المنطقي السطحي والطفولي للأمور قد قاده إلى الاستنتاج بأن المشكلة فيه هو شخصيّا، حيث إنه من غير المعقول أن يتصرف معه

الجميع بهذه الطريقة إلا إذا كان العيب فيه، ومن المستحيل أن يكون الجميع مخطئين وهو وحده على صواب.

رويدًا رويدًا قاده ذلك الاستنتاج إلى المزيد من التفكير في الرحيل، بدأ الرحيل يغدو حلًا للمشكلة على الأقل في ذهنه، ولكنه في ذلك الوقت لم يكن قد حدد بعد عَمّا أو عَمّن سيكون الرحيل والابتعاد، وإن كان قد تمنى لو أن هناك مكانًا أو زمنًا ما خاليًا من حالة الاضطهاد الدائم له من قِبَل الناس والدنيا، وهو إحساس مماثل لما يحس به الآن، كان في طفولته يشعر أنه لا يفهم أبعاد تلك المواقف تمامًا كما لا يفهم أبعاد الموقف الذي هو فيه حاليًا، لم يكن يرى مستقبلًا واضحًا لحياته وقتها مثلما هو لا يعرف مستقبلًا محددًا لما هو فيه الآن، فشل واضح في التعامل مع الموقف سابقًا مثلما هي الحال حاليًا.

عاد بذهنه إلى الواقع، لم يجد شيئًا قد تغير، كل شيء كما هو، نفس الضباب، نفس مدى الرؤية الذي لا يتعدى المترين، نفس الأصوات الخافتة غير المفهومة، نفس العجز عن الحركة أو الفعل.

رجع سريعًا إلى الماضي، هرب من واقع لا يفهمه إلى ماضٍ لم يكن راضيًا عنه ولم يكن يعرف وقتها إلى أين تأخذه أحداثه، ولكنه

هذه المرة عاد إلى سن السابعة عشرة، أي عندما كان في السنة النهائية من الدراسة الثانوية والمعروفة في (مصر) باسم (الثانوية العامة).

تذكر أحاسيسه وقتها فوجدها مماثلةً لأحاسيسه اليوم: حيرة، ضغط عصبي ونفسي شديد، مصير غير معلوم وقدرة محدودة للغاية على التأثير في ذلك المصير، ومما زاد من الضغط العصبي عليه وقتها أنه اضطر لاختيار مسار دراسي غير ذلك الذي تمناه، ثم انتهى به الأمر ناجحًا بمجموع محدود جدًا لا يتجاوز الثلاثة والخمسين في المائة، وقد كان ذلك بمثابة فشل آخر في حياته، وهو فشل أثمر عجزًا عن الالتحاق بأية كلية أو جامعة حكومية في (مصر)، فضلًا عن عدم قدرته المادية على الالتحاق بأية جامعة خاصة في (مصر) أو السفر للالتحاق بأية جامعة في الخارج.

تذكر نفسه يوم عرف نتيجة الثانوية العامة، كان جالسًا وحده حزينًا مكتئبًا دون أن يرى هدفًا واضحًا أو حتى ملامح خطة لحياته، وهي نفس حالته الآن، نفس الوحدة والحزن والعجز عن التخطيط للمستقبل، نفس الجو الضبابي وإن كان ضباب الماضي المجازي قد استبدل به ضباب آخر مجازي وفعلي معًا.

اضطر وقتها للالتحاق بأحد المعاهد الفنية التجارية التي تمنح الدارسين بها شهادة الدبلوم بعد عامين من الدراسة، أصيب بخيبة أمل كبيرة عندما اضطر للالتحاق بهكذا معهد ليس لخريجيه أي مستقبل أو تميز في سوق العمل المصري، ومما زاد من مرارته نظرات خيبة الأمل التي كان يراها في عيون أسرته وبالذات والديه، تلك النظرات التي عندما أضافها إلى ما عرفه عن مستقبل خريجي المعهد أيقظت بداخله شعور قديم، ذلك الشعور بالرغبة في الرحيل، ولكن هذا الشعور القديم الجديد قد انبعث هذه المرة وهو أكثر قوةً وتحديدًا، لقد أصبح شعورًا بالرغبة في البعد عن الحياة بأسرها، لم يعرف وقتها كيف يبتعد عن الحياة وهو فيها، ولكنه ارتاح قليلًا لأن مشاعره أخذت تتضح تدريجيًا.

عاد من ماضيه غير المرغوب إلى حاضره غير المرغوب وغير المفهوم معًا، لاحظ أن الضباب قد بدأ ينقشع قليلًا وأن مدى رؤيته قد ازداد إلى أربعة أو خمسة أمتار، وإن كان لا يزال لا يرى أي شيء سوى فراغ رمادي مغلف بضباب، بدأت الأصوات التي يسمعها تصبح أكثر وضوحًا وإن كان لا يزال لا يتبين منها جملًا مفيدةً، ولكنه استطاع التعرف على كلمات مثل الرحيل والابتعاد والوداع.

هرب مرةً أخرى إلى الماضي، إلى موقف آخر تتماثل أحاسيسه فيه مع أحاسيسه الحالية وتتشابه مشاعره وقتها مع مشاعره الآن، عاد إلى وقت ذهابه مع أسرته لخطبة الفتاة التي أحبها منذ كانا في المرحلة الثانوية، كان في الثلاثين من عمره وقتذاك، كانت حبيبته جارةً له تسكن في عمارة مجاورة وتصغره بعامين، طلبت منه التقدم لها بشكل رسمي حيث لم يعد مقبولًا استمرار علاقة الحب بينهما دونما ارتباط رسمي، بالإضافة إلى أن أهلها قد بدؤوا في الضغط عليها عندما وجدوها ترفض كل من يتقدم لها.

اصطحب والدَه فني الحدادة السابق بورش السكك الحديد، ووالدته ربة المنزل، وأخاه الأكبر فرد الأمن في أحد سلاسل محلات التجزئة، وذهبوا لزيارة أسرة الفتاة.

بعد بعض حوارات الترحيب وتبادل كلمات المجاملات المعتادة في مثل تلك المواقف، سأله والدها: ماهي وظيفتك يا (رحيل)؟

(رحيل): أنا أعمل أمين مخزن.

الأب، وقد بدا على وجهه علامات عدم الرضا: أين بالضبط؟

فأجابه (رحيل) بتلعثم وتوتر: في أحد سلاسل المحلات المتخصصة في بيع أجهزة الهاتف المحمول.

صمت الأب بعد أن ازدادت على وجهه ملامح عدم الرضا.

ثم بعد عدة دقائق بدأ الجميع في مناقشة الترتيبات المادية للزواج المفترض، لم تستغرق المناقشة أكثر من خمس عشرة دقيقة انتهت بخيبة أمل كبيرة لـ(رحيل)، فقد سمع بوضوح ما كان يعرفه بالفعل ولكن يحاول إنكاره، أيقن أن إمكاناته المادية وظروف عمله ووظيفته ا لمتواضعة لا تسمح له بالزواج مطلقًا، فلم يكن قادرًا على شراء أو حتى استئجار شقة مناسبة تصلح منزلًا للزوجية، وبالطبع سترفض أية فتاة يتقدم لها أن تعيش مع أهله في منزل واحد.

أحس بعد انتهاء الزيارة بإحساس يماثل بعضًا من أحاسيسه الحالية، أحس وكأنه يعيش في حفرة تحت الأرض، غير مسموح له بالصعود خارجها مطلقًا، أحس بأنه نكرة في هذا العالم، وجوده لا يضيف وغيابه لا يؤثر، أحس بأنه عاجز عن الفعل أو العمل أو حتى الإدراك الصحيح للأمور.

عندها طافت على ذهنه مرة أخرى فكرة الرحيل، فكر في الرحيل عن البلد وترك كل ما يعرفه وراءه، فكر في أن يأخذ أكبر مسافة ممكنة بعيدًا عن كل من يعرفهم، وبدأ بالفعل يطرق أبواب السفارات الأجنبية بحثًا عن تأشيرة تنتشله مما هو فيه من يأس وضياع، استمرت رحلة بحثه عن تأشيرة سفر أو هجرة عدة سنوات وباءت خلالها كل محاولاته بالفشل، واستمر يعيش في نفس الحفرة سنواتٍ وسنواتٍ تاليةً.

عاد إلى الواقع مرهقًا منهكًا فرحلته داخل مستنقعات ذكرياته قد أصابته بحالة من الإعياء الذهني الشديد، وقد ازداد إحساسه بالإرهاق عندما نظر حوله ولم يجد جديدًا يراه أو يفهمه، عندها استسلم للماضي مرةً أخرى، ولكن هذه المرة مع ما بدا وكأنه ازدياد في دقات قلبه وارتفاع في درجة حرارته نتيجة انفعاله بسبب ما يستعيده ذهنُه من أحداث الماضي.

استعاد أحداث يوم عيد ميلاده الأربعين، الذي حَلَّ عليه وهو في نفس وظيفته المتواضعة التي بلا مستقبل، وكان أيضًا لا يزال يعيش في منزل والديه دونما زوجة أو أطفال أو حتى مجرد خطة تمكنه من الارتباط وتكوين عائلة يومًا ما، فقد كانت حياته نظامًا

رتيبًا قاتلًا يتكرر يوميّا منذ ما يقرب من عشرين عامًا؛ نفس الأماكن والناس والأحداث وحتى المناقشات دونما تغيير أو مستقبل أو طموح أو حلم.

تذكر (رحيل) أحاسيسه جيدًا ذلك اليوم، لم يعد يستطيع الاستمرار في حياته على هذا النحو، لم تكن حياةً بالمعنى المفهوم ولكنها كانت مجرد وجود أو بقاء، قرر الاحتفال بعيد ميلاده الأربعين بشكل مميز، حيث ذهب إلى برج (القاهرة) ثم صعد إلى أعلاه، نظر إلى (القاهرة) بأضوائها المتلألئة ليلًا والتي بدت غاية في الجمال من هذا الارتفاع الشاهق الذي يبلغ نحو مائة وثمانين مترًا، في نظره كان هذا الارتفاع عن سطح الأرض مماثلًا لارتفاع أحلامه عن قاع حفرة واقعه شديد التواضع.

أيقن في داخله وبشكل تام أن قاع حفرة واقعه المتواضع هو قدره النهائي ولن يتمكن أبدًا من الارتفاع عنه، أرعبته فكرة أنه سيقضي ما تبقى من عمره يزحف في أوحال مستنقع واقعه وعلى نفس الوتيرة القاتلة المتكررة منذ عشرين عامًا، تراءى له أن ارتفاعه الحالي عن سطح الأرض هو أقصى ما يمكن الحصول عليه من ابتعاد عن واقعه، لم يعد يرغب في المزيد من التكرار، لم يعد يُصَدِّق مَنْ

يقول له إن الأحوال ستتحسن، لم يقتنع بأن القادم قد يكون أجمل، لم يعد يُلْقِ بالًا لنصائح رجال الدين المتعلقة بالصبر وانتظار الفرج.

كانت رغبته في الرحيل قد وصلت إلى حدودها القصوى وأصبحت حاجته إلى وداع كل هذا ملحةً، وتبلورت فكرة الابتعاد في وجدانه بشكل مكتمل وقاطع.

داعبت بعض نسمات الهواء وجهه وشعره، قال في نفسه: حتى نسمات الهواء على هذا الارتفاع أجمل من نسمات الهواء على سطح الأرض، قارن مرةً أخيرة بين ارتفاع طموحه وابتعاده عن قاع حفرة واقعه ثم قرر أن يبتعد تمامًا عن كل هذا ويرحل، قرر ترك الواقع الذي أتعبه واستنزف عمره دونما بارقة أمل، قرر ترك طموحاته التي تحولت مع الوقت من دافع للعمل إلى سبب في الحقد على من يعملون وينجحون، أدرك أنه أضعف من كل هذا الصخب، قرر الهروب والانتقال للجانب الآخر لعل الوضع هناك يكون مختلفًا، ألقى بنفسه من فوق البرج ذي الارتفاع الشاهق، تَذَكَّرَ جيدًا تلك اللحظات عندما هوى جسده من فوق البرج ليرتطم بقاع حفرة واقعه، بدأت الصورة تتضح في ذهنه، نظر حوله وإذا بالضباب ينقشع تدريجيًا والأصوات التي يسمعها تصبح أكثر وضوحًا.

أدرك أنه لم يعد في الدنيا، تذكر أنه قد اتخذ ونَفَّذ بالفعل قراره بالرحيل منذ بضع ساعات تاركًا وراءه كل شيء.

عند تلك اللحظة من الإدراك وجد أن الضباب قد انقشع تمامًا، ووجد نفسه فجأةً قادرًا على النهوض فنهض، ثم نظر بمزيد من التركيز خلال ما بدا وكأنها نافذة فشاهد عربة إسعاف تنقل جثته، ألقى بعض نظرات الحسرة والندم عليها، لاحظ أن مدى رؤيته قد تجاوز عدة أميال، عاود النظر في الاتجاه المعاكس للنافذة فشاهد ما يبدو أنها أمور لا تسر، وأدرك أنه مضطر للسير في هذا الاتجاه، وبالفعل ابتدأ السير في ذلك الاتجاه المحدد له وهو يتجرع كأس الحسرة والألم، ويكاد يقول في نفسه إن واقعه هنا لا يختلف عن واقعه هناك... نفس المستنقع وذات الوحل!

مرآة

أثناء حلاقته ذقنه، جرح وجهه كعادته شبه اليومية، فهو يحلق دون النظر للمرآة حيث أزال كل المرايا من منزله منذ عدة أعوام!

ارتدى ثيابه وذهب إلى العمل، دخل إلى النادي في تمام الثامنة صباحًا ثم بَدَّل ثيابه، وبعد عدة دقائق بدأ اللاعبون في الوصول استعدادًا للتدريب الصباحي لفريق كرة القدم الذي يدربه.

أمضى (عماد) أربعين عامًا من سنوات عمره الثمانية والأربعين في ملاعب الكرة، أي منذ أن اصطحبه والده وهو في الثامنة من عمره إلى مدرسة الناشئين في هذا النادي، وهو أيضًا نفس النادي الذى كان والده يلعب له، ثم استمر متواجدًا به بعد اعتزاله عن طريق العمل في مجال التدريب.

نظر إلى اللافتة التي تحمل اسم والده على إحدى صالات التدريب في النادي فأيقظت بداخله الكثير من الذكريات، ومضت في

ذهنه رحلة والده منذ ترك قريته الصغيرة وجاء إلى (القاهرة) وهو في السادسة عشرة من عمره ليلتحق بفريق الناشئين في النادي، وبعدها بعامين تم تصعيده للفريق الأول، فقد كان والده لاعبًا مرموقًا ومهاجمًا لا يشق له غبار، ثم استمر يلعب للفريق الأول حتى بلغ الثلاثين من عمره، وعندها اعتزل مبكرًا واتجه إلى التدريب.

ومن المفارقات أن يوم اعتزال والده كرة القدم كان نفس اليوم الذي اصطحبه فيه إلى مدرسة الناشئين، كان عمره وقتها ثماني سنوات وهو أيضًا نفس عمر والده عندما بدأ لعب كرة القدم في قريته الصغيرة، حين التحق وقتها بمركز الشباب الوحيد -والمتواضع جدًا- في تلك القرية وبدأ يمارس هذه ال لعبة التي غَيّرَت مجرى حياة الوالد ثم حياة الابن من بعده.

تذكر أنه عندما وصل إلى سن السادسة عشرة نقل إلى والده رغبته في ألا يكمل مشواره التعليمي للتركيز على مسيرته الكروية مثلما فعل الأب، إلا أن والده رفض وأصر على أن يكمل تعليمه، وبالفعل أكمل عامين آخرين في مشواره التعليمي حتى حصل على شهادته الثانوية ولكنه لم يتحمس للذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك.

استمر نهر ذكرياته في التدفق، ورسا على شاطئ ذهنه تفاصيل حوار آخر مع والده عندما كان في الثامنة عشرة، كان يومها عائدًا من مدرسته بعد أن جاء بنتيجة الثانوية العامة، وكان ذلك اليوم أيضًا هو يوم احتفال والده بعيد ميلاده الأربعين.

(عماد): كل عام وأنت بخير يا والدي العزيز.

الأب: وأنت بخير يا ولدي.

(عماد): لقد ظهرت نتيجة الثانوية العامة اليوم، بالكاد نجحت.

الأب، وقد بدت على وجهه علامات الارتياح: مبروك يا ولدي، ما يهم هو أنك نجحت.

(عماد): الحمد لله.

الأب: تستطيع أن تلتحق بإحدى الكليات النظرية التي لا تتطلب حضورًا أو انتظامًا حتى لو استغرقتك الدراسة سبع أو ثماني سنوات، فأنت لست في عجلة من أمرك.

(عماد): لا أظن أنني استطيع الاستمرار في الدراسة، فأنا لست متحمسًا للمزيد من الكتب والقراءة.

الأب: تستطيع النجاح لو قُمتَ ببعض المجهود.

(عماد): بصراحة أنا لا أريد، فقد تم تصعيدي للفريق الأول منذ أيام وأريد التركيز على مستقبلي الكروي.

عند هذا الحد انتهى حوارهما، وعند هذا الحد أيضًا انتهت علاقته بالتعليم.

بانتهاء تذكره لهذا الموقف كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف وكان اللاعبون قد اكتمل وصولهم واستعدوا للحصة التدريبية الأولى.

بدأ معهم بتمارين الإحماء، وكعادته طلب منهم أداءها وفقًا للمدرسة القديمة التي يواظب عليها منذ تعلمها من والده قبل أكثر من ثلاثين عامًا، انتظم اللاعبون في التدريبات وقاموا بتأديتها وفقًا لتعليماته، في حين وقف يتابعهم عن قرب وهم ينفذونها.

مرت على ذاكرته بعضًا من حوارته مع والده يوم سجل أول أهدافه مع الفريق الأول، كان وقتها قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره بعدة أشهر.

(عماد) سعيدًا منتشيًا: أخيراً سجلت هدفًا، أخيراً بدأت أثبت وجودي مع الفريق.

الأب: كم أنا فخور بك يا ولدي، رغم أنك أديت مباراةً متواضعةً لكن كما تعلم فالمهم هو التهديف، فالجميع سيتذكر هذا الهدف رغم أدائك المتواضع، في حين أنك أديت مبارياتٍ كثيرةً جيدةً قبل الآن ولم يتذكرها أحد لأنك لم تسجل فيها.

(عماد): نعم، ولكن الالتزام الخططي والبذل الدائم للمجهود وامتلاك لياقة بدنية مرتفعة، كل هذا مهم أيضًا وليس التهديف فقط.

الأب: يا ولدي هذا كلام نظري يقوله المحللون والمدربون في وسائل الإعلام، أنت مثلي مهاجم، والمهم بالنسبة للمهاجم هو التهديف.

(عماد): لا أتفق معك يا والدي، ماذا لو كانت ظروف المباراة تستدعي أن أقوم بأدوار أخرى دفاعية أو في وسط الملعب؟ ماذا لو

تغيرت طرق اللعب مع الوقت؟ سأحاول دائمًا أن ألتزم بالأداء الخططي، فهذا يضمن لي النجاح على المدى الطويل.

سكت الأب ولم يعلق.

عاد (عماد) إلى أرض الواقع، وبعد أن انتهت حصة الإحماء بدأ معهم حصة التدريبات الخططية والتطبيقية، تولى هو الإشراف على المهاجمين ولاعبي الوسط وطلب من مساعده الإشراف على تدريبات المدافعين.

وبعد عدة دقائق انفرد بالمهاجمين الخمسة للفريق -ما بين أساسيَ واحتياطيَ- في إحدى زوايا الملعب، ثم قال لهم: باختصار أنتم مهاجمون، وظيفتكم الأساسية هي التهديف، دعكم من أي كلام آخر ولا تتركوا أماكنكم في الأمام لأي سبب، لقد كنت مهاجمًا طيلة سنوات عمري في الملاعب، وهذا ما كنت أفعله منذ أن أصبحت أساسيًا في الفريق وحتى اعتزلت.

بعد أن انتهى من حصة التدريبات الخططية، أعطى اللاعبين را حةً لمدة عشرين دقيقة ليلتقطوا أنفاسهم قبل الحصة التدريبية التالية في صالة التدريبات الرياضية.

استبق التدريب بالانتقال إلى الصالة قبل اللاعبين، وعند دخوله طفا على سطح ذاكرته حوارًا دار مع والده في أحد الأيام القليلة التي ذهبا فيها معًا إلى صالة التدريبات الرياضية.

الأب: أنت تقوم بأداء تدريبات كثيرة ومتنوعة، لا أنصحك بذلك.

(عماد) وهو يتصبب عرقًا: لماذا يا والدي؟

الأب: أنت لا تحتاج إلى كل هذه التدريبات وبهذه الكيفية، فأنت في الثالثة والعشرين وأمامك سبع أو ثمان سنوات في الملاعب على الأكثر، حاول أن تركز فقط على التدريبات التي تفيدك في مركزك، أما بقية التدريبات فلا حاجة لك بها.

(عماد): إني أتدرب وفقًا لجدول ونظام تدريبات وضعه خبير اللياقة، وهو يهدف إلى تكوين بناء عضلي قوي ومتكامل، كما يأخذ في الاعتبار تقوية العضلات وزيادة قدرتها على الاحتمال دون استهلاكها سريعًا وهذا يضمن لي الاستمرار في الملاعب لفترة أطول.

الأب: لا حاجة لك للاستمرار طويلًا في الملاعب، المهم هو أن تترك ذكرى جيدة في السنوات التي تلعبها، فأنا اعتزلت وأنا في الثلاثين ولا زال الجميع يتذكرني حتى الآن.

(عماد): ولماذا لا أستمر في الملاعب لسنوات أكثر وبنفس المستوى العالي وأترك ذكرى أفضل؟

صمت الأب ولم يعلق.

أنهى (عماد) جولته القصيرة في ذكريات الماضي عندما انتهت الدقائق العشرون المخصصة للراحة، ثم بدأ معهم التدريبات في صالة اللياقة البدنية.

سَلَّمَ (عماد) كل مجموعة من اللاعبين خطة التدريب التي وضعها بنفسه، وبعد عدة دقائق سأله أحد الناشئين والمنضم حديثًا للفريق الأول: إن الكثير من اللاعبين في الفرق الأخرى يتبعون جداول ونظم تدريب مختلفة، فما هو الفرق يا كابتن؟

(عماد): هم يركزون على تجهيز البناء العضلي للاعبين ليظلوا في الملاعب فترات أطول، أما أنا فأركز على النتائج السريعة، نصيحتي لك هي أنه لا يهم عدد السنوات التي تقضيها في الملاعب، ولكن المهم هو الذكرى التي تتركها، فأنا اعتزلت وأنا في الثلاثين وإلى الآن لم أغب عن ذهن كل من شاهدني في الملاعب.

انتهى اليوم التدريبي، ذهب (عماد) ليأخذ دشًا قبل عودته إلى البيت، اتجه م سرعًا إلى منطقة الحمامات متجنبًا النظر إلى أيٍ من المرايا المعلقة على جدران غرفة تغيير الملابس، انتهى من حمامه وارتدى ثيابه، وأثناء خروجه من النادي نظر مرةً أخرى إلى الصالة التي تحمل اسم والده (عماد عتاقة)، وبالصدفة وجد أمامه أحد قدامى لاعبي النادي وكان زميل ملعب لوالده، فتبادلا السلامات وأجريا حوارًا سريعًا، وقبل أن يهما بالانصراف قال له زميل والده: إنك تزداد شبهًا بوالدك مع مرور الأيام شكلًا وروحًا وحتى طريقتك في الحديث تشبه طريقته، ثم أضاف ضاحكًا: واسمك أيضًا مثل اسمه، إنني الآن كأنني أنظر إلى والدك وأتكلم معه عندما كان في مثل عمرك.

صمت (عماد) ولم يعلق وإن كان قد قال لنفسه: لذلك لا أنظر أبدًا إلى المرآة!

obeikandl.com

المرأة الغامضة

في يوم عيد ميلاده الستين، وهو أيضًا يوم خروجه على المعاش، أقام زملاء (حارس) حفلًا لتوديعه والاحتفال بعيد ميلاده في نفس الوقت، تضاربت مشاعره يومها ما بين الفرحة بالاحتفال والتقدير من جانب والحزن لترك العمل ووداع الزملاء من جانب آخر.

وبعد نهاية الحفل عاد إلى منزله فوجد زوجته في انتظاره، تبادل معها القليل من الكلمات، ثم جلس وحده منزويًا في أحد أركان المنزل يتذكر بشكل عشوائي بعض أيامه في العمل وبعض الأحداث المميزة التي مرت عليه وقتذاك.

ولكن من بين كل تلك الأيام كان هناك يومان يلحان على ذاكرته بشكل متتالٍ، كانت أحداثهما تصر على تصدر المشهد في ذاكرته رغمًا عن محاولاته المستمرة للهروب منهما ومن ذكرياتهما، وفي النهاية استسلم (حارس) لهذا الإحساس وترك ذاكرته تسترجعهما بكل تفاصيلهما.

كان ذلك قبل سبعة عشر عامًا، يومها استيقظ (حارس) في تمام الساعة السادسة صباحًا، ثم استعد للذهاب إلى العمل وجلس مع زوجته وأولاده الثلاثة لتناول طعام الإفطار الذي أعدته لهم الزوجة، بعدها استقل إحدى سيارات الأجرة الجماعية متجهًا إلى عمله، وفي تمام الثامنة تَسَلَّم ورديته في أحد المجمعات السكنية الفاخرة التي تقع على أطراف مدينة (القاهرة).

كان يعمل فرد أمن في مجمع سكني شديد الفخامة والخصوصية معًا، ويضم أربعمائة "ڤيلا" سكنية، بالإضافة إلى نادٍ اجتماعي ورياضي شديد الرقي تقتصر عضويته وحق دخوله على قاطني المجمع مع حقهم في دعوة أصدقائهم ولكن بصحبتهم، بالإضافة إلى منطقة خدمات تقع في أحد أقصى أطراف المجمع وتضم مكتبًا للإشراف على أعمال الصيانة الدورية والأمن والنظافة وترتيب وتنسيق الحدائق.

ونظرًا لأنه لم يكن مسموحًا لأحد بالدخول مطلقًا إلا القاطنين أو زائريهم، فقد حظيت إجراءات الأمن منذ افتتاح المجمع قبل عشرة أعوام باهتمام خاص سواءً من ساكني المجمع أو من الشركة التي تتولى إدارته، وازداد هذا الاهتمام مؤخرًا بسبب الانفلات

الأمني الذي تعيشه مصر عمومًا و(القاهرة) خصوصًا منذ أحداث الخامس والعشرين من يناير وحتى وقتها في بدايات العام الخامس عشر بعد الألفين، وأيضًا بسبب طبيعة ونوعية قاطني المجمع وكذلك زائريهم، فكل سكان المجمع من صفوة المجتمع وأثريائه ورموزه في مجالات التجارة والصناعة والاقتصاد والإعلام والسياسة والرياضة أيضًا.

ومن أجل ذلك كانت عملية اختيار أفراد الأمن تتم بحرص واهتمام وحرفية شديدة، بحيث تتم مراعاة عدة معايير في اختيارهم، من بينها اليقظة واللباقة والذوق وعدم التدخل في شئون الغير والابتعاد تمامًا عن الفضول مع مراعاة الكتمان الشديد.

وهكذا تم اختيار (حارس)، فهو اجتماعيًا ينحدر من عائلة متوسطة الحال تأتي من أحد الأحياء الشعبية وليس العشوائية، وهو حاصل على درجة تعليم جامعية ممّا أكسبه بعضًا من حسن التصرف وبعضًا من مهارات الذوق وحسن التعامل، بالإضافة إلى أن طبيعته المسالمة والهادئة مع قلة كلامه وعدم ميله إلى الاختلاط المبالغ فيه بالآخرين تجعله أحرص ما يكون على الكتمان وأبعد ما يكون عن الفضول.

تَسَلَّم (حارس) ورديته التي تبدأ في الثامنة صباحًا وتستمر لمدة ثماني ساعات، وكان مسؤولًا في ذلك اليوم -مع زميل له- عن البوابة الرئيسة للمجمع.

طالما أحب (حارس) الأيام التي يكون مسؤولًا فيها عن البوابة الرئيسة، وذلك لأنه يمضي ورديته بالكامل جالسًا في غرفة الأمن في نفس المكان تقريبًا دون حركة تذكر ودون مجهود أو إرهاق، حيث إن سنوات عمره الثلاث والأربعين تجعله لا يحب كثرة الحركة خاصةً وأنه مدخن شَرِه.

كانت كل المؤشرات والشواهد تشير إلى أن هذا اليوم سيكون يومًا عاديًّا طبيعيًّا مثل غيره من الأيام التي أمضاها في العمل كفرد أمن في هذا المجمع السكني منذ افتتاحه، عشرة أعوام كاملة أمضاها في العمل في نفس المكان يشاهد يوميًّا نفس المباني والطرق ونفس التصميم الداخلي للمجمع، عشرة أعوام يتعامل مع القاطنين بنفس الطريقة ولا يخرج حواره معهم عن جمل قليلة محدودة في نفس المواضيع، خمسمائة وعشرون أسبوعًا لم تتغير فيها طريقة وأسلوب حواراته مع زملائه ومديريه في العمل، ما يزيد عن ثلاثة آلاف

وستمائة وخمسين يومًا يتحرك نفس الحركات وينطق نفس الجمل، وتقع عيناه على ذات المحيط وتشاهد نفس الأفق تقريبًا في كل يوم.

بعد عدة دقائق من تسلمه الوردية، فوجئ بسيارة فاخرة حديثة تقترب من البوابة في اتجاه الدخول ثم تتوقف، استنتج أنها ليست لأحد القاطنين؛ فقد كان الملّاك يستعملون الكروت الذكية في الولوج إلى المجمع، بعد أن توقفت السيارة عند البوابة فُتح الشباك المجاور للسائق، فوجد امرأةً شديدة الجمال تقول له باقتضاب: أريد الدخول، ڤيلا رقم "٨٢" في المنطقة "د".

جذبه جمالها الأخاذ لعدة ثوان، ثم أعاده التزامه بتعليمات التعامل مع الزائرين إلى رشده، فقام بالاتصال بالڤيلا رقم "٨٢" كما تقتضي التعليمات الخاصة بالتعامل مع الزائرين، فاحتَدَّ مَنْ رد عليه وقال له: بالطبع اسمح للسيارة بالدخول فورًا!

وفي الحال قام (حارس) بفتح البوابة قائلًا: تفضلي سيدتي، انعطفي عند رابع شارع يسارًا، "ڤيلا ٨٢" هي آخر "ڤيلا" على اليمين.

شكرته السيدة بعد أن نظرت إليه بذهول واندهاش، ثم سارت في نفس الطريق التي أرشدها إليها (حارس).

بعد عبور السيارة إلى داخل المجمع السكني، أغلق (حارس) البوابة وهو لا يزال مشدوداً بالجمال غير العادي لهذه السيدة، كما كانت رائحة عطرها النفاذ لا تزال تمارس سحرها على أحاسيسه ومخيلته، لاحظ زميله التغير الذي طرأ على (حارس) منذ وقعت عيناه على تلك السيدة، فقال له منبهًا: لا تنس نفسك! إنها من عِليةِ القوم، بالإضافة إلى أن ثمن سيارتها أكبر من عشرة أضعاف مجموع ما تتقاضاه هنا منذ أن بدأت العمل وحتى خروجك على المعاش، ابتعد عن المشاكل!

فقال له (حارس): أوافقك الرأي تمامًا، إنما كانت بضعة ثوان من الشرود والحلم.

فعلق زميله قائلًا: احذر من أحلامك فقد تقودك إلى مشاكل في واقعك.

فأجابه (حارس) بإيماءة من رأسه بما يفيد موافقته على ما قاله زميله.

بعد مرور نحو ساعتين على رؤية تلك السيدة، كان (حارس) لا يزال يفكر فيها، حاول أن يطرد هذا التفكير من رأسه فلم يستطع، كما حاول أن يطردها هي من ذهنه ففشل أيضًا.

سأل نفسه العديد من الأسئلة دون أن يستطيع الإجابة عنها: من هي هذه السيدة؟ وما هو اسمها؟ ولماذا تأتي لزيارة شخص ما في نحو الثامنة صباحًا؟! ولماذا لم تأتِ لزيارته قبل ذلك؟ ولماذا دخلت من البوابة الرئيسة رغم أن "ڤيلا ٨٢" أقرب للبوابة الفرعية؟! العديد والعديد من الأسئلة التي دارت في رأسه ولكن السؤال الأهم هو: لماذا يسأل نفسه هذه الأسئلة؟ ولماذا يهتم بهذه السيدة من الأساس؟! وأيضًا لم يجد إجابة عن هذا السؤال.

بعد عدة ساعات، تمالك (حارس) نفسه وسيطر على أعصابه وانفعالاته وتوقف عن التفكير، وعند نهاية ورديته سلم موقعه إلى فرد أمن آخر وفقًا لجدول تنظيم الورديات، ثم غادر المجمع السكني سيراً على أقدامه كعادته في السنوات الماضية، واتجه إلى الموقف ليستقل سيارة نقل جماعي إلى حيث يسكن.

ظل صامتًا تمامًا ودون تفكير طيلة فترة سيره البالغة نحو خمس وعشرين دقيقة، ثم فترة انتظاره لسيارة النقل الجماعي التي بلغت نحو خمس عشرة دقيقة، ثم فترة ركوبه لتلك السيارة البالغة ما يقرب من نصف ساعة.

سار على نفس الطرق التي ظل يسير عليها لمدة عشر سنوات كاملة، وشاهد نفس المناظر المعتادة يوميّا واحتك بنفس نوعيات الناس التي اعتاد التواجد بينها لمدة عقد من الزمان، وبعد عودته إلى منزله انخرط في نفس الحوارات اليومية مع زوجته وأولاده بنفس الجمل والمفردات تقريبًا وفي ذات المواضيع.

بعد انتهاء يومه، وضع رأسه على الوسادة، وقبل أن يخلد إلى نوم عميق جال في ذهنه خاطر ربما لأول مرة في حياته، خاطر سريع لم يستغرق أكثر من ثانيتين أو ثلاث، خاطر يقول له إن حياته أصبحت عبارة عن يوم واحد يتكرر بحذافيره وبشكل منتظم دونما أي تجديد، نفس الأشخاص ونفس العمل وذات الطرق وذات المباني ونفس وسائل المواصلات.

في صباح اليوم التالي استيقظ (حارس) واتجه إلى عمله وفقًا لنفس الروتين اليومي، وعند تَسَلُّمه ورديته أخبره مديره أن تغييراً تم على جدوله وسيكون اليوم مسؤولًا عن المبنى الاجتماعي في النادي.

وبعد أن تَسَلَّم (حارس) موقعه في المبنى الاجتماعي بعدة دقائق، فوجئ بنفس السيدة رائعة الجمال التي رآها بالأمس تدخل من الباب الرئيس للمبنى، ثم تتجه بمشية كلها ثقة إلى أحد المقاعد

التي يمكن للجالس عليها رؤية حمام السباحة عبر زجاج الصالة الرئيسة، تكرر معه ما حدث بالأمس من انبهار شديد بجمالها الأخاذ وعطرها النفاذ.

كانت الـ ساعة الثامنة وعدة دقائق صباحًا، تَعَجّبَ (حارس) كثيراً من هذه السيدة التي تأتي في هذا التوقيت المبكر وتجلس وحدها في المبنى، ولكنه انتبه إلى أن الدخول إلى هذا المكان حصريًّا لقاطني المجمع ولا يحق للزائرين الدخول إلا بصحبة أحد السكان.

اتجه إليها في هدوء ثم قال لها بأدب جم: صباح الخير، أحب فقط أن أنبه سيادتك بأن الدخول إلى المبنى الاجتماعي هو فقط للسادة سكان المجمع وليس للسادة الضيوف إلا بصحبة أحد القاطنين.

بعد أن أنهى (حارس) جملته انفجرت تلك السيدة في نوبة حادة من الضحك وقف خلالها (حارس) متعجبًا، وبعد أن أنهت ضحكها قالت له: أنا من سكان المجمع منذ افتتاحه أي منذ عشرة أعوام كاملة!

كان وقع هذه الجملة عليه كمن سقط عليه شلال من الماء البارد في الشتاء، اعتذر لها ثم سار مبتعدًا عنها، اتصل بمديره وأخبره أنه يريد رؤيته، جاءه مدير الأمن فوجد (حارس) مرتبكًا ومنفعلًا

فسأله عن السبب، فقص عليه (حارس) ما حدث، فضحك مديره ثم قال له: نعم إنها من أقدم سكان هذا المجمع السكني.

فسأله (حارس): وكيف لم أرها أنا من قبل.

فأجاب مديره بهدوء: السبب هو أنها تعمل في وظيفة ليلية تتطلب منها السهر طوال الليل ولا تأتي إلا صباحًا، فهي تعمل مديرة لإحدى صالات القمار، وعندما تأتي إلى المجمع تدخل من البوابة الفرعية لأنها الأقرب لڤيلتها وعادة في هذا التوقيت تكون أنت إما عند ملاعب التنس أو عند صالة الألعاب الرياضية أو عند البوابة الرئيسة لذلك لم ترها قبل ذلك، الذي حدث بالأمس هو أنها نسيت البطاقة الذكية الخاصة بها، كما كان هناك إصلاحات في الطريق الفرعي المؤدي إلى البوابة الفرعية فَغَيّرَت طريقها ودخلت من البوابة الرئيسة.

تَعَجّب (حارس) من الإجابة وأصابته بنوع من الدهشة، إلا أنه عاد بعدها إلى عمله محاولًا التركيز فيه، ولكن ظلت عشرات الأسئلة في رأسه، وهي أسئلة يمكن تلخيصها في تساؤل واحد ظل يسأله لنفسه يومها كثيراً وهو: من هم الأشخاص وما هي الأشياء الجميلة الأخرى التي لم يلاحظها في حياته بسبب نمط معيشته الممل والمتكرر وشديد المحدودية؟

عندها طرق الواقع رأسه بوضوح ليدرك أنه يعمل ويحيا بشكل شبه آلي ولا يكاد ينظر إلى أبعد من قدميه، كأنما يترك الدنيا بكل ما فيها من رحابة ويُلزم نفسه بالسير في ممر ضيق لا يحيد عنه ولا يرحل ببصره خارجه مطلقًا.

عند هذا الحد انتهى اليومان بكل ما فيهما من أحداث، وعلى الرغم من الحقيقة التي توصل إليها (حارس) إلا أنه أقنع نفسه مع مرور الو قت بأن هذا هو قدره وعليه تقبله، لم يغير شيئًا في نفسه أو حياته، واستمرت أيامه على نفس الوتيرة إلى أن بلغ الستين ووصل إلى سن المعاش.

تذكر (حارس) هذين اليومين جيدًا، عايشهما مرةً أخرى بكامل أحداثهما مسترجعًا كل ذكرياته فيهما، ثم نظر إلى السقف ببعض الحسرة والأ لم، فقد تمنى وقتها لو كان قد تعلم منهما شيئًا.

obeikandl.com

حب وسيطرة

على أحد المقاعد ذات الحجم الكبير في صالة منزله، جلس (سلطان) وسط ضيوفه بعد أن أطفأ معهم الشموع احتفالًا بعيد ميلاده الخامس والأربعين في حفل مفاجئ رتبته له زوجته (أحلام).

نظر (سلطان) إلى ز وجته وهي تقترب منه رويدًا رويدًا ممسكةً بعلبة مغلقة بين يديها، وكلما خطت خطوةً في اتجاهه استعاد في ذهنه لقطةً من شريط ذكرياتهما معًا منذ أن فكر في الزواج بها وحتى اللحظة.

تذكر (سلطان) الاستعدادات الخاصة بيوم زفافه حيث أمضى نحو ساعتين تحت يدي الحلاق، ثم ارتدى بدلة الفرح واتجه إلى إحدى قاعات الأفراح في دار تابعة للقوات المسلحة في (القاهرة).

امتزج بداخله وقتها خليط من مشاعر شتى من السعادة والتوتر، وأيضًا النشوة المتعلقة ببدء مرحلة جديدة من حياته والخوف المتعلق بالمسؤولية المصاحبة لتلك المرحلة.

كان شديد الحرص والحذر عند اختيار عروسه، فقد بذل مجهودًا كبيراً في البحث داخل دوائر الأهل والأصدقاء والزملاء والمعارف عن عروس بها المواصفات الخاصة التي كان يحلم بها، فقد أرادها أن تكون فتاةً محافظةً من عائلة محافظة، محجبةً، طيبةً، تؤمن بسلطة الرجل عليها، بالإضافة إلى أنه حرص على أن يختارها أصغر منه بنحو اثني عشر عامًا؛ فقد كان يريدها بلا خبرات في الحياة، بالإضافة إلى أنه اعتقد أن زواجه من فتاة في العشرين من عمرها سيمكنه من فرض سيطرته عليها وتشكيل شخصيتها وسلوكياتها كيفما يشاء.

مرت ليلة الزفاف بهدوء وسعادة على العروسين وعلى جميع الحاضرين، وكذلك مرت سنوات الزواج الأولى على عائلتيه الصغيرة والكبيرة.

عاش (سلطان) في سعادة ورزقه الله بابنتين في خلال السنوات الثلاث الأولى من زواجه. كان معجبًا بالوتيرة التي سارت عليها حياته في سنوات زواجه الأولى، ففارق السنوات الاثنتي عشرة وكذلك كونه من يتولى الإنفاق منفردًا على الأسرة جعلاه صاحب الكلمة الأولى

والأخيرة في المنزل، وهو وضع طالما تمناه قبل زواجه وسعد كثيراً عندما منحته الحياة فرصةً لتحقيقه.

لم يكن لدى (سلطان) أية علاقات نسائية أو أية تعاملات عن قرب مع النساء قبل الزواج، وبالتالي فقد كانت (أحلام) هي بالفعل أولى علاقاته النسائية وأولى تعاملاته عن قرب مع الجنس الآخر، كما كان هو أيضًا كذلك بالنسبة إليها.

واستمر في رحلة ذكرياته ليستعيد مشاعر حبهما الصافية والفياضة في سنوات زواجهما الأولى لدرجة أنهما لم يكونا قادرين على الابتعاد عن بعضهما ولو لأيام معدودات، كما لم يطيقا مجرد الاختلاف في وجهات النظر فيما بينهما حتى في المواضيع الثانوية.

ولكن هيهات أن تعزف الحياة على نفس الإيقاع لفترات طويلة، فمع مرور الأيام والسنوات تراجع نجاحه المهني نتيجةً لطبيعته الشخصية التي تميل إلى السكون ورفض التغيير والتطوير، وأصبح يشغل وظيفةً تقليديةً غير مميزة في إحدى شركات المقاولات الصغيرة، وبالتالي تراجع مع الوقت مستواه المادي وتراجعت الحوافز وبقية المزايا المادية بالتدريج مع تراجع وضعه المهني.

بدت له مع الوقت حياته المهنية كأنما هي قمر يتحرك في النصف الثاني من الشهر العربي، من كونه بدرًا في صدر السماء ملء البصر ومحط الأنظار، إلى كونه محاقًا لا يكاد يُرى أو يؤثر أو يلفت النظر.

ومع مرور الوقت بدأ تراجعه المهني والمادي ينعكس على حياته الأسرية؛ فأصبح أكثر حدةً مع بناته وأكثر غلظةً مع زوجته، وكلما كانت الحياة خارج المنزل تزيحه من المركز نحو الأطراف كان يحاول تعويض ذلك بالمزيد من التحكم والسيطرة داخل المنزل، بدأ صوته يعلو على أتفه الأمور، وبات يفقد أعصابه لأسباب لا قيمة لها، أراد لاإراديًا أن يكون الداخل تعويضًا عن الخارج، أراد أن يعوض إخفاقه هناك باصطناع نجاح هنا، أراد أن يُلبس ضعفه هناك رداء قوة مختلقة هنا.

وبعد مرور ثماني سنوات على زواجه أصبحت الأمور أكثر اضطرابًا، بعضه ظاهر للعيان والبعض الآخر كامن كالنار تحت الرماد.

حينها كان قد بلغ الأربعين دون نجاح مهني يُذْكَر أو ارتياح مادي من أي نوع، ويعيش مع ابنتين علاقته بهما متوترة وزوجة

أصبح جل همه أن يراقب ليس فقط تحركاتها وكلامها بل وأفكارها أيضًا!

ظل (سلطان) رافضًا تمامًا أن تعمل زوجته مستخدمًا نفس المقولات القديمة والمحفوظة مثل: إن الزوجة مكانها الطبيعي هو المنزل ووظيفتها الرئيسة هي رعاية أولادها، ثم طَوَّرَ تلك المقولة لتناسب العصر الحديث -من وجهة نظره- بحيث أصبحت: إن الزوجة من حقها أن تعمل ولكن الأولوية هي لمنزلها وأولادها.

وبعد التحاق ابنتيه بالتعليم وما صاحب ذلك من إحساسه بضغط زوجته عليه؛ نتيجة وجود وقت فراغ كبير في حياتها ومن ثَمَّ تفرغها شبه الكامل له، تراجع عن موقفه ووافق على أن تعمل بعد أن أملى عليها كثيراً من الشروط والتحفظات المتعلقة بطبيعة العمل وحدود التعامل مع الزملاء وأيضًا مواعيد العمل.

وبالفعل التحقت زوجته (أحلام) بالعمل في إحدى الشركات الصغيرة التي تعمل في مجال البورصة وتداول الأسهم.

وفور التحاقها بعملها الجديد أثبتت (أحلام) نفسها، وتمكنت من تحقيق تقدم مهني معقول، كما اجتازت بنجاح عدة اختبارات

خاصة بالشهادات المهنية التي عادة ما يحصل عليها العاملون في هذا المجال.

وبعد مرور عامين على التحاقها بتلك الشركة الصغيرة، وجدها تقول له:

(أحلام): لقد جاءني عرض للعمل في إحدى الشركات الكبيرة في مجال تداول الأسهم.

فتساءل ببعض التعجب وكثير من اللامبالاة: ولماذا تعرض عليكِ شركة كبيرة في مجال البورصة العملَ لديها؟!

فقالت ببعض التحدي: أجل، أكبر شركة في مجال تداول الأسهم في مصر وافقت على انضمامي لفريق العمل لديهم.

بَدَت على وجهه ملامح الدهشة ثم تساءل متعجبًا: أكبر شركة؟! وهل وافقوا بشكل نهائي على توظيفك؟!

فأجابت: نعم، لقد أجريت ثلاث مقابلات شخصية معهم، كما اطلعوا على نماذج من التقارير والدراسات التي أعددتها مع شركتي الحالية، وتسلمت منهم بالفعل عرضًا للعمل.

فصمت تمامًا ولم يُعَقِّب.

ثم تابعت: إن الراتب الذي عرضوه عَلَيّ هو ضعف راتبي الحالي، هذا طبعًا بالإضافة إلى الحوافز والمكافآت.

لم يَرُد عليها ولم يعقب ولكنه أيضًا لم يهنئها.

دارت في عقله العديد من الأسئلة والتحليلات، فراتبها الجديد مع ما هو ملحق به من حوافز ومكافآت سيتجاوز راتبه بحوالي ثلاثين في المائة، بالإضافة إلى أن الشركة الجديدة التي ستعمل بها أكبر من شركته وأكثر استقرارًا، ولها صيت داخل مجتمع الأعمال أفضل بكثير من شركته.

سأل نفسه: هل من الطبيعي أن يفرح لنجاحها؟ أم يشعر بالغيرة تجاهها وتجاه نجاحها؟ هل من الطبيعي أن تصل في عامين إلى أكثر مما وصل هو إليه في عشرين عامًا؟ هل هذا يعتبر نجاحًا لها؟ أم فشلًا له؟

ازدحمت رأسه بالأفكار والتساؤلات ثم بعد نحو عشر دقائق من الصمت قال لها: لا تعطيهم رَدًّا نهائيًا حتى نقرر.

فقالت له بتعجب: نقرر ماذا؟!

فقال لها: نقرر هل ستقبلين الوظيفة أم لا؟

فقالت: وهل مثل هذه الوظيفة يمكن رفضها؟!

فقال: لا بد أولًا أن نعرف مواعيد العمل وظروفه، وهل سيتطلب سفرًا أم لا؟ وهل سيتطلب التأخير عن مواعيد العمل الرسمية أم لا؟

شاهد على وجهها الكثير من علامات الدهشة لما سمعته منه، وأيضًا بعض علامات الأسى.

ثم سمعها تقول بنبرة بها شفقة عليه: حسنًا سنناقش الموضوع سويًا في الأيام المقبلة، ولكنني سأبلغهم أنني قبلت الوظيفة حتى لا تضيع الفرصة.

أحس بأنها تشفق عليه من إحساسه بالفشل، أحس بأنها لا تريد أن تجرح كبرياءه وكرامته، ولكنه أيضًا أدرك أنها لن تضيع الفرصة بسبب عجزه هو عن الإتيان بفرصة مماثلة.

مضت الأيام، قبلت الوظيفة، استمر هو في وظيفته، ومع مرور الوقت تباعدت حياتهما ولم يعد بينهما شيء مشترك، كانت هي تمضي من نجاح إلى نجاح، اجتماعات مع رجال الأعمال وأعضاء الإدارة العليا في كبرى المؤسسات المالية والاقتصادية، عمل دؤوب، صفقات ناجحة تكون هي لاعبًا أساسيًا في تنفيذها ويتم نشر أخبارها في الصحف والمجلات المتخصصة.

كانت حياتها المهنية تسير كالسهم المنطلق دائمًا نحو الأمام، كالشعاع الذي يقتحم الظلام وينير ما حوله حتى يصل إلى هدفه، وعلى الطرف الآخر كانت حياته المهنية كما هي، ويمكن وصفها بتعبير واحد "لا جديد".

بعد ثلاث سنوات وفي يوم عيد ميلاده الخامس والأربعين، عاد (سلطان) من عمله ثم تناول غداءه الذي أعدته الخادمة التي أحضرتها زوجته، ثم غَطَّ في نوم عميق كعادته منذ عدة سنوات، وهي عادة بدا اعتياده عليها كأنه علامة على الكسل أو الهروب من الواقع أو كليهما معًا.

استيقظ في نحو الثامنة مساءً، نهض من فوق سريره متثاقلًا، ثم وقف أمام المرآة وهو يداعب كرشه الذي بدا وكأنه ينمو معه يومًا

بعد يوم ويزداد نحو سنتيمترين أو ثلاثة كل عام، دخلت عليه زوجته وطلبت منه أن يرتدي ثيابه لوجود ضيوف بالمنزل، اتجه إلى خزانة ملابسه متأففًا وارتدى ثيابه ثم نظر إلى نفسه في المرآة، بدا وكأنه في الستين أو السبعين من عمره، وزنه زائد إلى حد كبير، ملابسه ذات موضة قديمة، شعر أبيض وغير مصفف جيدًا ومشية متثاقلة توحي بعدم الرغبة في الحركة بل الرغبة في السكون، ذلك السكون الذي يسبق الرحيل.

فتح باب غرفته واتجه إلى غرفة المعيشة ليجد ثلاثةً من أصدقائه المقربين مع زوجاتهم، وبعضًا من أفراد عائلته ملتفين حول كعكة مكتوب عليها بواسطة الشموع عددَ سنوات عمره؛ "٤٥".

استنتج (سلطان) أن زوجته قد رتبت احتفالًا بعيد ميلاده، أحس بالكثير من السعاد ة، فقد كان يحبها حبّا كبيراَ وإن كان لا يصرح لها بذلك وبخاصة في السنوات الأخيرة، نظر إلى الحاضرين ونظرات عينيه تتسارع لتبحث عن (أحلام)، وصلت عيناه إليها فوجدها تقف عند طرف الغرفة وحيدةً تنظر إليه.

لم يستطع (سلطان) أن يحدد طبيعة نظراتها إليه فقد كانت إضاءة الغرفة خافتة استعدادًا لإطفاء الشموع، نظر إليها مرةً أخرى

بشيء من التفحص كأنما يحاول أن يتعرف عليها، كان ينظر إليها كأنه لم يرها منذ فترة، استمر في النظر إليها وهي تتحرك بضعة خطوات حتى أصبحت على الجانب المقابل له من طاولة الطعام ثم وقفت مواجهة له، اكتسى وجهها بابتسامة ملائكية كما عهدها دائمًا طيلة سنوات زواجهما الثلاثة عشر، لطالما عشق النظر إليها وهي تبتسم تلك الابتسامة التي لم تفقد ملائكيتها وبراءتها منذ وقعت عيناه عليها وحتى الآن، الشيء الوحيد المختلف هو أن ابتسامتها حاليًا أصبحت تمزج ما بين البراءة والملائكية من جانب والثقة والقوة من جانب آخر.

بدت وهي في الجانب المقابل له كأنها الصورة العكسية له، كانت ابتسامته خافتةً باهتةً في مقابل ابتسامتها المشرقة، كانت حركته متثاقلةً في مقابل حيويتها، كانت ملابسه داكنةً في مقابل فستانها الطويل الذي أضفى عليها مزيدًا من الحيوية بلونه الفاتح، والذي ازداد بريقًا ببعض التطريزات الخفيفة المتلألئة عليه، أما جسده الكبير المترهل والمتهدل كحالته الذهنية فقد كان في مقابل جسدها الممشوق وحضورها الذهني الطاغي.

أطفأ الزوجان الشموع مع الحاضرين، ثم شكرهم (سلطان) بكلمات قليلة واتجه ليجلس على أحد المقاعد الكبيرة التي تناسب

حجم جسده، مرت في ذهنه كل تلك المراحل في غضون ثوان قليلة، وعندما عاد بذهنه من شروده وجد أن (أحلام) قد اقتربت منه حتى وقفت أمامه، ثم أعطته العلبة الصغيرة التي كانت ممسكةً بها قائلةً له: كل عام وأنت بخير يا أفضل زوج في الدنيا، أنت السبب الأكبر في نجاحي وأتمنى أن أظل بجانبك لآخر يوم في عمري.

سلطان باقتضاب: شكرًا يا (أحلام)، شكرًا.

وجد أن إجابته تقليدية وكأنما يوجه كلامه لشخص غريب وليس لزوجته، فتح العلبة فوجد مفتاحًا لسيارة من ماركة فارهة وهي نفس ماركة السيارة التي تمتلكها (أحلام)، لم يتكلم ولم يعلق وإن كانت حدقتا عينيه قد ازدادتا اتساعًا بشكل كبير.

حاول بكل ما أوتي من قوة أن يخفي بداخله مزيجًا غريبًا من المشاعر، مشاعر حب كبير لزوجة مخلصة يدل كل تصرف منها على حبها الكبير له، ومشاعر خوف على مستقبل هذا الزواج الذي أصبح غير متكافئ على الإطلاق سواءً من ناحية الشكل أو المضمون، ومشاعر حزن على نفسه لعدم قدرته على تحقيق نجاح يذكر في حياته المهنية وأيضًا لإدراكه أنه قد فات أوان أي محاولة لتغيير هذا الوضع، ومشاعر متعلقة بندمه على سوء معاملته لزوجته وابنتيه

بالإضافة إلى مشاعر أخرى ترفض إحساس (أحلام) بالشفقة عليه والأسى لحاله.

ظل جالسًا مع الحضور حتى انصرف الجميع بعد نحو ساعة، ثم قال لزوجته: شكرًا يا حبيبتي على هذه المفاجأة الرائعة، أنتِ إنسانة لا تتكرر، شكرًا على كل لحظة عشناها معًا.

شاهد على وجهها ملامح سعادة كبيرة بما قاله لها، انتبه إلى أن هذه أول مرة يستخدم كلمة "حبيبتي" معها منذ سنوات.

لم ترد عليه وإنما احتضنته بقوة، لم يبادلها الحضن وإن كان قبلها على مقدمة رأسها بهدوء ثم قال لها: سأذهب الآن لأشتري سجائر من الدكان الذي يقع على ناصية الشارع.

فقالت له بدلال: حسنًا، ولكن لا تتأخر، نريد أن نكمل احتفالنا معًا.

فقال لها بصوت خافت: بالتأكيد.

ثم ترك مفاتيح سيارته الجديدة وأخذ مفاتيح سيارته القديمة.

سألته أحلام: لماذا تأخذ مفاتيح السيارة؟ إن المحل على بعد أقل من مائة متر.

فأجابها بابتسامة: أنتِ تعرفين أنني أصبحت كسولًا منذ فترة. ثم ودعها وذهب.

نزل السلم ببطء ثم ركب سيارته وسار بها متجاوزًا ذلك الدكان، واصل السير في اتجاه منزل والديه القديم حيث كان يقطن قبل الزواج، اتصل بوالده وأخبره بأنه سيأتي ليمكث عنده عدة أيام ثم أغلق هاتفه المحمول، ونظر في مرآة السيارة ليشاهد منزل الزوجية الذي أمضى فيه ثلا ثة عشر عامًا، نظر إليه نظرة مودع كأنما يشاهده لآخر مرة ثم انعطف بالسيارة مبتعدًا عنه ومتجهًا إلى حيث كان يعيش... في الماضي!

obeikandl.com

وحدة وانطواء

فتح (وحيد) باب السيارة الأيمن حيث كان يجلس بجوار والده، ثم نزل من السيارة وأغلق الباب، وبالمثل فعل والده، ثم اتجها إلى مدخل العمارة التي كانا يقطنان بها، دخل الأب أولًا في حين كان (وحيد) يمشي بخطوات بطيئة نتيجة إرهاقه بعد يوم دراسي طويل، وأيضًا بسبب ثقل الحقيبة المدرسية التي كان يحملها والتي لا تتناسب مع طفل صغير في بداية عامه الثاني من التعليم الابتدائي وفي نحو السابعة من عمره.

تقدم الأب وسبق بخطوتين أو ثلاث، ثم صعدا السلم في اتجاه شقتهما، وفي أثناء صعودهما درجات السلم تصادف أن كان أحد الجيران ينزل مواجهًا لهما، وعندما مر بجانبهما ألقى عليهما السلام، فَرَدَّ الأب السلام في حين صمت (وحيد) ولم يَرُد.

استمرا في صعود درجات السلم حتى وصلا إلى الطابق الثالث حيث يسكنان، وفور دخولهما سأله الأب: ألم تسمع جارنا وهو يلقي علينا السلام؟

فأجاب (وحيد): نعم سمعته.

فعاد الأب وسأله: ولماذا لم ترد عليه؟!

فصمت (وحيد) ولم يجب أو لعله لم يجد إجابةً تبرر عدم رده.

تركه الأب بعد أن صرخ في وجهه عدة مرات، ومضى إلى غرفته ممتعضًا وهو يشكو لزوجته ما حدث ويقول لها: لا أفهم سبب انطوائه الشديد وعدم رغبته في الكلام مع أحد.

فأجابت زوجته: إنه لا يزال صغيراً وسيتعلم كيف يكون اجتماعيًا مع مرور الوقت.

فعقب الأب: لا أظن.

دخل (وحيد) إلى غرفته، بَدَّلَ ثيابه وغسل يديه ووجهه ثم جلس يشاهد التلفاز منتظرًا أن تنتهي والدته من إعداد طعام الغداء،

وكأي طفل في السابعة من عمره كان مشدودًا لمشاهدة أحد مسلسلات الكرتون، في حين التقطت أذناه -عن غير قصد- مناقشةً عابرةً بين والدته ووالده.

الأم: هل سنذهب اليوم لتهنئة زميلتي في العمل على الترقية التي حصلت عليها؟

الأب: كلا، لست في مزاج مناسب لذلك.

الأم: لا يوجد مشكلة، نستطيع الذهاب غدًا أو بعد غد.

الأب: أفضل أن تذهبي وحدك، فأنا لا أحب الزيارات المنزلية كما تعلمين!

فقالت الأم وعلى وجهها علامات الاستياء: وهل من المفترض أن أذهب إلى جميع الزيارات المنزلية والمجاملات وحدي؟!

صمت الأب تمامًا دون تعليق أو إجابة، في حين كان (وحيد) يستمع إلى حوارهما ويتابعه دون أن يلاحظا ذلك.

بعد عدة أسابيع، ذهبت الأسرة إلى النادي الاجتماعي بعد انقطاع دام عدة أشهر، كانت الأم هي الأكثر حماسًا للذهاب إلى النادي في حين كان الأب مصاحبًا لهم على مضض، أما (وحيد) فقد كان صامتًا هادئًا كعادته.

بعد دخولهم بعدة دقائق، جلسوا على إحدى الطاولات الفارغة، انشغل الأب بقراءة الجريدة اليومية وتدخين سجائره، في حين كانت الأم ترسل رسائل نصيّةً عن طريق هاتفها المحمول لأصدقائها لتعرف مَنْ منهم في النادي لتلتقي به، أما (وحيد) فقد جلس على كرسيه هادئًا يلعب بالجهاز اللوحي (الآي باد - iPad).

بعد نحو نصف ساعة كان الأب قد انتهى من قراءة الجريدة الصباحية، وانتهى معها من تدخين بضع سيجارات كما شرب فنجانًا من القهوة، في حين كانت الأم لا تزال تتواصل مع أصدقائها وأصدقاء العائلة عن طريق الرسائل النصية، أما (وحيد) فكان لا يفعل شيئًا سوى اللعب بالجهاز اللوحي.

في أثناء ذلك مر أحد أصدقاء (وحيد) وسَلَّم عليه وعلى الأب والأم، ثم تبادل معه حديثًا عابرًا لمدة لا تتجاوز الدقيقتين، وبعدها طلب منه أن ينضم إليه وإلى أصدقائهما حيث سيلعبون مباراةً في كرة

القدم، إلا أن (وحيدًا) اعتذر لصديقه قائلًا له: إنني أفضل أن ألعب كرة القدم على الجهاز اللوحي!

بعد أن رحل صديقه وجد (وحيد) والده ينظر إليه وعلى وجهه الكثير من علامات الاستياء والقرف ثم قال له: لماذا لم تذهب مع أصحابك للعب الكرة؟

فأجاب (وحيد): لا أريد أن ألعب.

فسأله الأب مرة أخرى مستغربًا: ولماذا لا تريد اللعب؟

فأجاب (وحيد): لا أحب اللعب مع الآخرين، أحب اللعب وحدي، لا أحب أن يكون لي أصدقاء.

فقال له الأب بلهجة الناصح: تصرفك هذا ليس صحيحًا، لا يوجد إنسان يستطيع أن يعيش وحده، كل شخص لا بد له من أصدقاء.

صمت (وحيد) ولم يعقب، نظر الأب إلى زوجته وعلى وجهه علامات الغضب وخيبة الأمل وقال لها: ابننا شخصية غريبة، هل يرضيك هذا؟!

نظرت الأم إلى (وحيد) نظرةً غاضبةً، وكأنما تريد أن تحمله مسبقًا مسؤولية النزهة التي سوف تفسد واليوم الذي سيتوتر نتيجة غضب الأب بسببه، ثم قالت له: لماذا تريد أن تشيع في العائلة جَوًّا من الحزن؟ لماذا لا تريد أن تلعب مثل بقية الأطفال الذين هم في مثل عمرك؟

فأجاب (وحيد) وفي عينيه نظرة حزن شديد: لا أريد أن ألعب مع الآخرين، لا أريد الذهاب، أريد الجلوس واللعب وحدي.

نظرا إليه بخيبة أمل وغضب ثم أشاحا بوجههما عنه، ولم يَبْدُ عليهما أنهما أدركا مدى حزنه أو تساءلا عن سببه.

بعد نحو عشر دقائق رن هاتف الأم، وإذ بإحدى صديقاتها تخبرها بأنها في النادي مع عائلتها وتقترح عليها أن تلتقيا معًا، وافقت الأم على الفور ثم اتفقتا على المكان وعلى أن يتقابلا بعد ربع ساعة.

بعد أن انتهت الأم من المكالمة، طلبت من زوجها وابنها أن يستعدا لكي يتحركا إلى حيث اتفقت مع صديقتها على اللقاء.

فوجئت بزوجها يقول لها: أنا لست حاليًا في حالة تسمح لي بالجلوس مع آخرين وسأذهب إلى المضمار لأمشي وحدي!

فقالت له وعلى وجهها ملامح الاستغراب: ألم تسمعني وأنا أتفق معها؟ لماذا لم تخبرني قبل ذلك؟ بالإضافة إلى أن زوجها سيكون متواجدًا وليس من اللائق أن أكون وحيدةً بدون زوجي.

فقال لها: تستطيعين التحجج بأي عذر، قولي لهما إنني ذهبت لأمر طارئ.

فقالت له بصوت عالٍ وبغضب: أنت دائمًا لا تتواجد معي في أية مناسبة، دائمًا تتغيب عن أي تجمع لأصدقائنا، هل تدرك أنك تقريبًا قد أصبحت بلا أصدقاء؟!

لم يُجِب زوجها ولم يُعَقِّب، ثم انصرف متجهًا إلى المضمار.

في أثناء ذلك كان (وحيد) يستمع لكل كلمة ويشاهد كل لمحة، وكل ذلك يتسرب بهدوء إلى عقله الصغير وروحه البريئة، ربما وقتها بدأ ينتبه إلى أن هناك من ينصح الناس بما لا يفعل.

بعد عدة أسابيع، كانت الأسرة تجلس بكامل أفرادها على العشاء، وبعد أن تبادلا كلامًا سطحيًا في بعض الأمور قال الأب لـ(وحيد): أنا لا يعجبني حالك، فأنت تجلس يوميًا دونما شيء تفعله بعد أن تنتهي

من واجباتك المدرسية، لا بد أن تمارس نشاطًا ما أو رياضةً ما، من غير المقبول أن تظل خاملًا ساكنًا دون هوايات ووحيدًا دون أصدقاء.

فقال (وحيد): ولكنني لا أحب أن أفعل شيئًا بخلاف اللعب على الجهاز اللوحي.

فتدخلت الأم قائلة: أنت لا زلت صغيراً ولا بد أن تمارس رياضة بها نشاط وحركة.

وبعد بعض المحاولات والنقاشات أقنعاه بأن يذهب مع والدته إلى النادي ليشاهد بعض تدريبات الفرق الرياضية ثم يقرر بعدها.

وبالفعل قام الأب بتوصيلهما إلى النادي في يوم الإجازة الأسبوعية، ثم قام (وحيد) مع والدته بجولة شاهد خلالها مختلف تدريبات الفرق الرياضية.

وبعد نحو ساعتين وبعد عدة نقاشات مع والدته ومع مدربي الفرق، اختار لعبة التايكوندو؛ فقد أراد أن يبتعد عن الألعاب الجماعية.

وافقته والدته، ثم استعلمت من مدرب فريق التايكوندو للمرحلة العمرية الخاصة به عن مواعيد التدريب، فأخبرها أن فريق التايكوندو يتدرب ثلاث مرات أسبوعيًا والحصة التدريبية عبارة عن ساعة واحدة فقط.

وبعد أن فرغا من جولتهما، استقلا سيارة أجرة وعادا إلى البيت، وبعدها بنحو ساعة عاد الأب فأخبراه بنتيجة الجولة والاتفاق الذى تم مع مدرب التايكوندو.

فقال الأب: هل يعني هذا أنني سأقوم باصطحابه إلى النادي ثلاث مرات أسبوعيًا؟!

فقالت الأم: نعم!

سأل الأب: وبعد أن أذهب معه، هل سأضطر أن أنتظره ساعةً كاملةً حتى ينتهي من التمرين ثم أعود به مرةً أخرى إلى المنزل؟!

فقالت الأم: نعم، كيف سيذهب ويعود وحده من النادي وهو في هذه السن الصغيرة؟ وأنت تعرف أنني لا أستطيع قيادة السيارات.

فقال الأب: لا أعتقد أنني أستطيع القيام بذلك، فأنا عندي كثير من المشاغل، بالإضافة إلى أنني لست على استعداد للدخول في حوارات ونقاشات مع المدرب!

فقالت الأم وعلى وجهها علامات التعجب: إذا كنت لست على استعداد لاصطحابه إلى النادي فلماذا اقترحت عليه أن يتدرب؟! ولماذا شجعتنا أن نذهب ونشاهد التدريبات ونتفق مع المدرب؟!

لم يُجِب الأب، ولم تُعَقِّب الأم أكثر من ذلك، واستمع (وحيد) إلى الحوار كاملًا واختزنه لاشعوريًا بداخله، ربما وقتها بدأ يدرك أن هناك من يقول ما لا يفعل.

ومرت الأ يام، وبعد نحو ثلاثة وثلاثين عامًا، كان (وحيد) يحتفل بعيد ميلاده الأربعين وهو في نفس الوقت عيد ميلاد أبيه السابع والستون، فقد تصادف أنهما جاءا إلى الدنيا في نفس اليوم والشهر.

لم يكن حاضرًا سوى (وحيد) وزوجته وابنه الوحيد ووالداه أيضًا. وبعد أن تم إطفاء الشموع وتقطيع كعكة عيد الميلاد قال الأب لـ(وحيد): هل تتذكر حواراتي معك عندما كنت صغيرًا؟

فأجاب (وحيد): نعم، أتذكرها كلها.

فعاد الأب ليسأل: هل تذكر عندما كنت دائمًا أقول لك ألا تكون انطوائيًا؟ ألا تكون وحيدًا؟ أن تتواصل مع الآخرين؟

فأجاب (وحيد): نعم، أذكر ذلك جيدًا.

فقال الأب: هل أدركت الآن أنني كنت على حق؟ أين أصدقاؤك؟ أين معارفك؟ لقد أصبحت في الأربعين وليس لك حياة اجتماعية، وتعيش دونما أصدقاء أو حتى معارف سطحية.

فقال له (وحيد): نعم يا والدي، معك حق، فأنا قد وصلت إلى الأربعين دون أن يكون لي حياة اجتماعية ودون أن يكون لي أصدقاء أو معارف. ثم سأله بهدوء: ولكن أخبرني، أين هم أصدقاؤك ومعارفك أنت؟!

فصمت الأب ولم يجب، وانتهى حوارهما عند هذه النقطة.

obeikandl.com

obeikandl.com

لوحة جدارية

جلس (أحمد) على طاولة الطعام مع زوجته شارد الذهن، يأكل لقمةً كل عدة دقائق، لاحظ أن شفاهها تتحرك إلا أنه من فرط شروده لم يصل صوتها إلى مسامعه، نظر بهدوء إلى أثاث الغرفة المتواضع ثم جال ببصره على بعض من بقية أثاث الشقة القديم والمتهالك، ثم وقعت عيناه على ثيابه وثياب زوجته الرثة، جدد ذلك إحساسه المستمر بالأسى على حاله، كان اليوم هو أول أيامه بعد خروجه على المعاش وانتهاء سنوات عمله التي أمضى معظمها في مجال السياحة، أحس بألم كبير لأنه منذ اليوم سيجلس في شقته الصغيرة المتواضعة بلا عمل أو إضافة، كما أحس بأنه سيفتقد زملاءه في الفندق الذي عمل فيه سبعةً وعشرين عامًا متصلة حتى خرج على المعاش في سن الستين.

استدعى ذ لك الأسى الكثيرَ من الذكريات من مستودعات ذاكرته، ثم سأل نفسه: هل كان سيتغير حاله لو أنه أجاب على سؤال ابنه الأصغر منذ سبعة وعشرين عامًا؟!

عاد (أحمد) بقطار الزمن سبعةً وعشرين عامًا إلى الوراء، إلى أول أيام عمله في الفندق، يومها وصل إلى عمله في تمام العاشرة صباحًا، دخل من الباب المخصص للموظفين واستفسر من الأمن عن مكان إدارة الموارد البشرية ثم اتجه إليها، كان الجميع يعمل بهمة ويتحرك بسرعة ونشاط استعدادًا للافتتاح التجريبي بعد عشرة أيام.

يومها تذكر حالة المكان عندما جاءه لأول مرة قبل ذلك بشهرين لإجراء المقابلات الشخصية، كان الوضع مختلفًا ولم تكن الأماكن الخاصة بالموظفين قد انتهى تشطيبها وتجهيزها بعد، كما لم تكن أعمال التشطيبات والتركيبات الداخلية للفندق ذاته قد اكتملت، وكذلك الحال بالنسبة لأعمال التنسيق الخاصة بالحدائق المحيطة بمباني الفندق، أعجبه كثيراً التطور الذي حدث وحجم الإنجاز الذي تم خلال تلك المدة القصيرة.

بعد أن أتم مقابلته مع الموظف المسؤول في قسم الموارد البشرية وبعد أن استوفى مسوغات التعيين، اصطحبه ذلك الموظف إلى المرآب (الجراج) الخاص بالفندق ليتسلم وظيفته كسائق، فالفندق - كمعظم فنادق (شرم الشيخ) الراقية- لديه حافلات خاصة بنقل

السياح، سواء من وإلى المطار، أو من وإلى سائر المناطق السياحية في المدينة وما حولها.

وفي يوم الافتتاح التجريبي طُلب منه التوجه إلى مطار (شرم الشيخ) الدولي لاستقبال أحد الأفواج السياحية واصطحابهم إلى الفندق، فاتجه (أحمد) بالحا فلة إلى المطار متحمسًا لاستقبال أول أفواجه في أول أيام عمله الفعلية.

طوال الطريق من الفندق إلى المطار والبالغة نحو عشرين كيلومترًا، كان (أحمد) يقود الحافلة بسرعة أقل بكثير من الحدود القصوى للسرعة المسموح بها في المدينة، ينظر بانتباه ويقظة إلى الطريق الطويل أمامه والتي تم رصفها وتجهيزها وفقًا لأفضل المعايير العالمية، في حين كان يسود لون رمال الصحراء الأصفر على جانبي الطريق باستثناء بعض الفنادق التي تتناثر كل بضعة مئات من الأمتار، وفي أثناء قيادته للحافلة مارسَ العادة التي اكتسبها عن طريق بعض أصدقائه من مُرتا دي الدروس الدينية، حيث وضع قرصًا مدمجًا (CD) في مشغل الاسطوانات واستمع إلى درس ديني لأحد مشاهير الدعاة والوعاظ.

فور وصوله إلى المطار اتجه إلى أماكن الانتظار المخصصة لحافلات الفنادق، استبدل الاسطوانة المدمجة الخاصة بالدرس الديني بأخرى بها موسيقى هادئة وفقًا لتعليمات الفندق التي تحدد ماهية المحتوى المسموح ببثه عن طريق مشغل الاسطوانات عند وجود سياح بالحافلة، ثم انتظر الفوج السياحي، وفور أن صعد كل أفراد الفوج إلى الحافلة تحرك بهم عائدًا إلى الفندق.

وعندما وصل إلى الفندق أخبره مديره أنه لن يقود الحافلة لرحلات أخرى ذلك اليوم، كذلك أخبره أنه سيكون مسؤولا عن قيادة الحافلة لرحلة واحدة فقط يوميًا طيلة فترة التشغيل التجريبي للفندق أي في الشهور الثلاث القادمة، استقبل (أحمد) هذه المعلومة بارتياح، فقد اعتبرها فرصةً جيدةً للاعتياد بشكل تدريجيّ على عمله الجديد دون ضغوط، خاصةً أنه لم يعمل خارج (القاهرة) من قبل.

قام (أحمد) بقيادة الحافلة من أمام مدخل الفندق إلى المرآب، وأثناء قيامه بتفقد المقاعد قبل نزوله لاحظ وجود هاتف محمول ملقى على أحد الكراسي، استنتج (أحمد) أن أحد السياح قد نسيه، فأخذه على الفور واتجه إلى بهو الاستقبال حيث وجد أعضاء الفوج مجتمعين في أحد أركان القاعة، فاتجه إليهم حاملًا الهاتف

المحمول في يده، وعلى الفور تحرك إليه أحدهم وعلى وجهه ابتسامة، وأخبره عن طريق القليل من الكلمات الإنجليزية والكثير من الإشارات أن هذا الهاتف يخصه وأنه كان على وشك البدء في البحث عنه، فهم (أحمد) المقصود من كلمات الرجل وإشاراته فأعطاه الهاتف، وشكره السائح عدة مرات على أمانته.

وفي أثناء خروج (أحمد) من بهو الاستقبال لاحظ وجود رسم كبير على أحد الجدران، شد الرسم انتباهه فوقف يحدق فيه، كان الرسم يغطي الجدار بكامل ارتفاعه البالغ نحو سبعة أمتار وبكامل عرضه البالغ نحو أربعين متراً.

أعجبته كثيراً درجة الإتقان العالية في هذه اللوحة الجدارية، وقد كانت اللوحة عبارة عن مشهد مقتبس من الحياة في البيئة النوبية أقصى جنوب (مصر)، مجموعة من المنازل الصغيرة ذات الطابق الواحد والألوان الزاهية متراصة في صفين متقابلين يفصل بينهما طريق مستقيم غير واسع، وعلى أحد جانبي الصورة امرأتان نوبيتان ترتديان الزي النوبي التقليدي وتتجاذبان أطراف الحديث، إحداهما تستند بظهرها على جدار أحد المنازل، وفي الشارع ثلاثة

أطفال يلعبون، وفي أعلى اللوحة رجلان أسمران يرتديان زيًّا نوبيًا أبيض يسيران بجانب بعضهما.

حَدَّقَ في اللوحة بضع دقائق قبل أن يقترب منه أحد موظفي الفندق مرتديًا بدلته الأنيقة ثم قال له: هذه لوحة جدارية لأحد الفنانين الشباب، استغرقته عدة أسابيع وانتهى منها منذ بضعة أيام فقط، إنه شاب متميز ذو موهبة غير عادية.

فَعَقَّب (أحمد) قائلًا: نعم، قدرة غير عادية على محاكاة الواقع بكل تفاصيله الدقيقة، والرمزية فيها غير مباشرة، فالذي يشاهد اللوحة سيصله الإحساس بمدى اهتمام أهل (النوبة) بنظافتهم وباختيار ألوان منازلهم، وبتجمعهم الذي يمنحهم الإحساس بالأمان.

لاحظ (أحمد) علامات الدهشة على وجه زميله.

فعاجله بالقول وعلى وجهه ابتسامة: لا تندهش؛ فأنا حاصل على شهادة جامعية، أنا خريج كلية التربية الرياضية ولكنني لم أجد عملًا في مجال تخصصي فاتجهت إلى هذه الوظيفة.

أنهى (أحمد) حواره مع زميله ثم ذهب إلى حيث يجلس عندما لا يكون خلف عجلة القيادة، أي في الغرفة الخاصة بالسائقين.

سارت حياته على نفس الوتيرة لثلاثة وعشرين يومًا متواصلة، ثم وفقًا لنظام العمل في الفندق -والمماثل لكثير من فنادق شرم الشيخ- فقد حان وقت إجازته الشهرية؛ فهو يحصل على عطلة قدرها سبعة أيام بعد كل ثلاثة وعشرين يومًا من العمل.

عند عودته إلى منزله، استقبلته زوجته وأولاده الثلاثة بترحاب شديد وتوالت عليه الأسئلة: هل أنت سعيد في هذا العمل؟ هل أعجبتك الحياة في (شرم الشيخ)؟ هل تستطيع العمل لثلاثة وعشرين يومًا متواصلة؟

لطالما أحب (أحمد) أسرته بشكل كبير ولم يكن يشعر بارتياح حقيقي إلا ع ندما يكون بينهم، فقد مَثَّلُوا له دائمًا كل حياته ومحور اهتمامه.

قال لهم مجيبًا عن أسئلتهم: نعم، أنا سعيد في وظيفتي الجديدة، الحياة في (شرم الشيخ) جيدة إلا أنها شديدة الملل بدونكم حولي، أما العمل لثلاثة وعشرين يومًا متصلة فهو مرهق، ولكنني لا زلت شابًا في ا لثالثة والثلاثين وأستطيع تَحَمّل ذلك.

كان يوم عودته إلى (القاهرة) هو يوم جمعة وأولاده في إجازة من مدارسهم، أراد (أحمد) اقتناص الفرصة لقضاء بعض الوقت معهم، ولذلك بعد أن تناولوا الغداء معًا وبعد أن اطمأن منهم على أحوالهم الدراسية، عرض عليهم الخروج معًا وقضاء بعض الوقت في إحدى الكافيتيريات المطلة على النيل والقريبة من منزلهم في منطقة (إمبابة) الشعبية.

أثناء جلوسهم معًا سأله (صائب)، ابنه الأكبر ذو العشر سنوات: لماذا لا تحاول أن تبحث عن وظيفة أخرى أقل إرهاقًا يا والدي؟

ابتسم (أحمد) وقال له: مبدئيًا إن الحصول على وظيفة أمر صعب للغاية في ظل هذه الظروف الاقتصادية المتقلبة، ولكن أخبرني ما هي اقتراحاتك؟

فأجابه ابنه ببراءة: يمكنك الحصول على وظيفة أخرى تتطلب مجهودًا أقل ويكون مقر عملك بداخل الفندق.

فقال (أحمد): ولكنني يا ولدي لا أريد وظيفةً داخل الفندق!

فقال له (صائب) وعلى وجهه علامات الدهشة البريئة مثل أي طفل: لماذا يا والدي؟! فأنت معك شهادة جامعية، ووالد صديقي في المدرسة يحمل نفس شهادتك، وهو يعمل داخل الفندق ولا يقود الحافلة طوال اليوم.

فتنهد (أحمد) ثم قال لابنه: لا أريد أن أعمل داخل الفندق لأنني لا أريد أن أتعامل مع الخمور يا ولدي، ولا أريد التعامل مع نساء شبه عاريات طوال اليوم، بالإضافة إلى أنني لا أريد التواجد في مراقص بين نساء ورجال في أوضاع غير شرعية. ثم صمت قليلًا وبعدها نظر لابنه مباشرةً في عينيه وقال له: إن إرضاء الله هو أهم شيء في هذه الدنيا يا ولدي وليست الراحة في العمل.

وفي اليوم التالي، اصطحب (أحمد) زوجته وأطفاله لزيارة قريب لهم أُجريت له جراحة منذ أسبوعين، وفي أثناء الزيارة دارت عدة نقاشات بين (أحمد) وقريبه تركت أثرًا بالغ السوء على (أحمد)، فقد أمضى قريبه نحو نصف ساعة يتكلم معه بطريقة غير لائقة ويحط من قدره ومن قدر وظيفته، كما ألمح له أكثر من مرة بأنه فشل في حياته وأن قراراته غير سليمة.

انتهت الزيارة ثم عادت الأسرة إلى البيت، لاحظت الزوجة علامات الاستياء باديةً على وجه (أحمد) فقالت له: هَوِّن عليك، فهو ابن عمك وأنت تعرفه جيدًا، هذه هي طريقته في التعامل، بالإضافة إلى أنها ليست أول مرة يكلمك فيها بهذه الغلظة.

فالتقط ابنه الأكبر طرف الحوار وقال له: هل هو دائمًا يتكلم معك بهذه الطريقة؟

فأجاب (أحمد): نعم يا ولدي.

فسأله ابنه بتعجب وبشكل عفوي: ولماذا إذن تحرص على زيارته؟!

فأجابه (أحمد): إنها صلة الرحم كما أمرنا الله، وقد أجريت له جراحة منذ فترة قصيرة وزيارة المريض واجبة طبقًا لتعاليم ديننا.

فسأله ابنه (صائب) بنفس التلقائية: ولكن زيارتك له تجعلك دائمًا غير سعيد، أليس كذلك؟

ابتسم (أحمد) قائلًا بتردد: نعم... أحيانًا.

فسأله ابنه: أنت قلت إن إرضاء الله يكمن في أن تكون غير سعيد في عملك، وأيضًا في أن تكون غير سعيد في زياراتك، لماذا لا يرضى الله عنك إلا عندما تكون غير سعيد؟!

كاد (أحمد) ينفعل على ابنه، إلا أنه سيطر على أعصابه إدراكًا منه أن (صائبًا) لا يزال طفلًا في العاشرة من عمره، فقال له وهو يحاول تَصَنُّع الهدوء: أنا أفعل ما فيه إرضاء لله حتى لو كان غير متفق مع رغباتي، كما تقوم أنت بواجباتك المدرسية حتى لو كنت تفضل بدلًا منها أن تلعب مع أصدقائك.

بعد أن أنهى (أحمد) عطلته وعاد إلى (شرم الشيخ)، اتصل بأسرته ليطمئنهم إلى أنه وصل إلى مكان عمله وإقامته، فقالت له زوجته على الهاتف: إن الأولاد يريدون أن يأتوا لزيارتك، فهم متحمسون جدًا لرؤية (شرم الشيخ).

فأجابها: حسنًا، فكرة جيدة، عندما يفرغون من امتحاناتهم بعد ثلاثة أسابيع اصطحبيهم إلى (شرم الشيخ) وتعالوا لنقضي جميعًا أسبوعين معًا.

وبعد ثلاثة أسابيع، وصلت زوجته وأولاده إلى (شرم الشيخ)، ووفقًا لقواعد فندقه الصارمة اضطر لاصطحابهم للإقامة في فندق آخر، صعدوا إلى غرفهم، وبعد نحو نصف ساعة نزلوا جميعًا إلى البهو الرئيس، ثم قال لهم (أحمد): اليوم هو يوم عمل عادي بالنسبة لي، لذلك فسأغيب لثلاث أو أربع ساعات ثم أعود إليكم.

فقالت له زوجته: هل يمكن أن نأتي لزيارتك في مكان عملك؟ سيكون الأولاد سعداء للغاية بذلك.

فأجابها: لا أرى مانعًا، يمكنكم أن تأتوا لنصف ساعة فقط ثم تعودوا إلى هنا.

اتجهوا إلى فندقه حيث يعمل، عَرّفَهُم على زملائه ومديريه، جال الأولاد ببصرهم في المكان، وفي بهو الفندق وقف الأولاد معجبين باللوحة الجدارية التي تمثل الحياة في القرية النوبية، أصر ابنه الأصغر ذو الست سنوات أن اللوحة لامرأتين نوبيتين تتجاذبان أطراف الحديث، في حين قال ابنه الأوسط ذو السنوات الثمانية إن اللوحة لأطفال نوبيين يلعبون في الشارع، أما ابنه الأكبر فقال إن اللوحة للشارع كله بما فيه المرأتين والأطفال والرجلين.

فضحك (أحمد) وقال: يا أولاد، إن اللوحة الجدارية تمثل الحياة في القرية النوبية، الرجال ذاهبون إلى العمل، الأطفال يلعبون في الشارع، النساء يبقين في القرية ليراقبن الأولاد ويهتممن بشئون البيت ولا مانع من حواراتهن الطويلة، الحياة آمنة، الشوارع نظيفة، والبيوت ملونة.

ثم صمت قليلًا قبل أن يضيف: لا بد أن ننظر للوحة كاملةً وليس إلى جزء واحد فقط منها، لأن النظر إلى جزء واحد فقط -مهما كبر ذلك الجزء- يجعل رؤيتنا غير متكاملة وبالتالي نصل لاستنتاجات خاطئة.

فسأله (صائب): هل لا بد أن ننظر إلى اللوحة كاملةً في الرسم فقط يا أبي أم في كل شيء؟!

فأجاب (أحمد): في كل شيء طبعًا، من المفترض أن ننظر للصورة كاملةً في كل شيء!

تذكر ابنه الحوارات التي دارت بينهما منذ أسبوعين، ثم قال: هل تفعل ذلك يا أبي في علاقتك مع الله؟

فقال الأب: طبعًا، فأنا أنظر للوحة كاملةً، بعض التعب وعدم السعادة في الدنيا في مقابل إرضاء الله للحصول على سعادة أبدية في الآخرة.

فقال (صائب): ولكن ربما يكون هناك جزء آخر من اللوحة لا تراه يا أبي، أو لا تريد أن تراه.

(أحمد): وما هو هذا الجزء يا ولدي؟

(صائب): وهل يعقل أن يريدنا الله أن نكون متعبين وغير سعداء في الدنيا؟!

صمت (أحمد) وانتهى حوارهما عند هذه النقطة.

لم يجب وقتها عن سؤال ابنه، ولم يحاول الإجابة عنه بعد ذلك، وظل لسنوات طويلة يبعد هذا السؤال عن ذهنه ويتحاشى مجرد التفكير فيه، وعندما أعاد طرح السؤال على نفسه في سن الستين خاف من الإجابة، فأي نتيجة سيصل إليها إما ستهدم ماضيه، أو تفسد مستقبله، أو ربما تجعله يخسر آخرته!

obeikandl.com

اتجاهان

في وسط أحد المجمعات التجارية الضخمة (المولات) التي بنيت في (القاهرة الكبرى) وعلى أطرافها في السنوات الأخيرة، وقف (رمزي) في وسط المجمع التجاري تقريبًا وقد بلغ به التعب مداه والإرهاق منتهاه.

كانت الساعة نحو الثامنة مساءً والجو حار كعادته في يوليو من كل عام، بدت على وجهه ملامح يومه الطويل والمرهِق والذي بدأ منذ استيقاظه في السابعة صباحًا، ثم قيادته لسيارته من حي (المهندسين) ذهابًا إلى عمله في أحد المصانع في مدينة (السادس من أكتوبر)، ثم ثماني ساعات من العمل الذي يحتاج درجةً عاليةً من التركيز، اتجه بعدها إلى النادي الرياضي الذي يتمرن ولداه فيه، حيث سبق أن اصطحبتهما زوجته بعد انتهاء دوامها إلى النادي لممارسة بعض الأنشطة الرياضية وذلك بعد أن أنهيا يومهما الدراسي، وصل إلى النادي في نحو السادسة وتابع مع زوجته ما تبقى من تدريب التنس

الخاص بالأولاد، ثم اتجهوا جميعًا إلى ذلك المجمع التجاري القريب من النادي والذي يقع في مدينة (الشيخ زايد) على أطراف (القاهرة).

فور دخولهم المجمع التجاري اتجه الأولاد مع والدتهم للتسوق وشراء بعض الملابس لهما، في حين اتجه هو إلى منطقة المطاعم والمقاهي (الكافيهات) التي تقع في منتصف المركز التجاري مفضلًا الجلوس على أحد المقاهي إلى أن ينتهوا، عندما وصل إليها وقف في منتصفها تقريبًا وجال بعينيه سريعًا في المقاهي لينتقي أحدها، ونتيجةً لأن تلك المنطقة مكشوفة غير مكيفة فقد ازداد إحساسه بحرارة الجو، لذلك فقد قرر اختيار المقهى الأقرب وبدأ يخطو عدة خطوات باتجاهه.

وأثناء تحركه باتجاه المقهى لفت نظره أحد عمال النظافة بالمركز التجاري، شاب في بداية العشرينات، على وجهه ملامح تعب وإرهاق وبعض الانكسار، جسمه ضئيل ويتحرك ببطء وحرص وبخطوات صغيرة مدروسة كي لا يصطدم -سواء هو أو أدوات النظافة التي يستخدمها ويصطحبها معه- بأحد رواد المركز التجاري.

توقف (رمزي) ولم يكمل سيره، دقق النظر في هذا العامل وراقبه، كان العامل لا يكاد يرفع رأسه عن الموقع الذي يقوم بكنسه

وتنظيفه ولا ينظر لأبعد من ذلك إلا بمتر أو مترين وفقط في الاتجاه الذي يتحرك فيه، كذلك كان شديد الحرص على ألا ينظر لأحد من رواد المركز التجاري، كما كان لا ينظر إلى المحلات أو المقاهي أو المطاعم أو غير ذلك، بدا ذلك العامل حزينًا أو مكسورًا، كان يؤدي عمله بحركات آلية دونما انفعال أو تأثر.

استمر (رمزي) في المراقبة، ولكنه هذه المرة كان يركز على رواد المركز وكيفية تعاملهم ونظرتهم لذلك العامل البسيط الذي يرتدي الزي الموحد لعمال النظافة في المجمع التجاري، بدا وكأن زيه ذا اللون الأزرق الغامق قد جعله غير مرئي بالنسبة لمعظم رواد المركز، فهم لا يكادون يشاهدونه أو يلاحظون وجوده، بل إن معظمهم بدا من نظراتهم أنهم لاحظوا معدات النظافة وابتعدوا عنها عدة خطوات لتفاديها ولكنهم لم يلاحظوا العامل، باستثناء قلة قليلة من رواد المركز استنتج أنهم قد لاحظوا وجود ذلك العامل عندما وجدهم قد تحركوا خطوةً أو خطوتين لتفاديه أو لتفادي رائحته المزعجة مع رمقه ببعض نظرات الشفقة عليه.

لم يكمل (رمزي) سيره إلى المقهى ولكنه استمر واقفًا في منطقة المطاعم في منتصف المركز التجاري تقريبًا، واستمر يتابع بنظره حركة عامل النظافة وحركة الناس من حوله.

بعد ربع ساعة من المشي بالحركة البطيئة وتأدية مهامه من كنس وتنظيف والتقاط ما وقع من ورق أو علب أو أكواب، وصل العامل إلى أحد أركان منطقة المطاعم، أفرغ ما في صندوق قمامته الصغير في آخر كبير، ثم وقف قليلًا مستندًا بظهره على ذلك الصندوق الكبير رافعًا رأسه ووجهه الممتلئ بعلامات السخط وعدم الرضا إلى السماء، عند تلك اللحظة أحس (رمزي) بازدياد وطأة الإرهاق عليه، فسار حتى وصل إلى المقهى الأقرب ثم جلس على إحدى الطاولات بدون تفكير، طلب من النادل فنجانًا من القهوة وزجاجةً صغيرةً من الماء، ثم واصل النظر إلى ذلك العامل الذي كان لا يزال متجهًا ببصره إلى السماء، واستمر يراقبه لدقيقة أو دقيقتين إلى أن لفت انتباهه شاب آخر في بداية العشرينات كان يجلس على الطاولة المجاورة له.

كان ذلك الشاب يتحدث في هاتفه المحمول بانفعال واضح وصوت عالٍ مكَّن (رمزي) من الاستماع لبعض مما يقوله، فهم أن ذلك الشاب كان يشكو لوالدته كيف أن والده يرفض شراء سيارة جديدة له أحدث من تلك التي يركبها حاليًا، بعد ذلك انخفض صوت الشاب، وبعد لحظات وصل النادل حاملًا فنجان القهوة وزجاجة المياه اللذين طلبهما (رمزي)، ثم بعدها اتجه النادل إلى طاولة ذلك الشاب.

ارتشف (رمزي) بعض القهوة من فنجانه ثم استرق النظر إلى طاولة الشاب المجاورة له، لاحظ أن ذلك الشاب يرتدي ثيابًا عصرية شديدة الفخامة ويحمل في يده محمولًا من النوع باهظ الثمن، دفع الشاب حسابه ثم تحرك ببطء ومر بجانب (رمزي)، فلاحظ أنه يضع عطرًا رجاليًّا نفاذًا، ثم تابعه بعينيه حيث أكمل ذلك الشاب سيره ببطء متجهًا إلى أحد أركان منطقة المطاعم حيث توجد الحمّامات، وهو نفس الركن الذي يقف فيه عامل النظافة.

لاحظ (رمزي) أن ذلك الشاب شديد الأناقة ذو العطر النفاذ يسير ببطء وثقة، وأثناء سيره كان رواد المركز التجاري الذين يتصادف مروره بالقرب منهم ينظرون إليه بإعجاب واضح، في حين لم يكن الشاب ينظر إليهم ولا يكاد يرفع بصره عن موضع خطواته القادمة، كان يتحرك بطريقة آلية تنم عن شيء من اليأس والإحباط حتى وصل إلى نفس الركن الذي يقف فيه عامل النظافة.

وجد (رمزي) أن الشاب قد نظر إلى داخل منطقة الحمّامات ولم يكمل طريقه إلى الداخل عبر الباب، واستنتج بذلك أنه قد وجد الحمَّامات مزدحمةً، تحرك عامل النظافة خطوتين استعدادًا لبدء دورة جديدة من العمل والتنظيف، عندها أصبح ذلك الشاب واقفًا بشكل

قريب للغاية من عربة النظافة الخاصة بالعامل دون أن ينظرا إلى بعضهما مطلقًا، بعد ذلك اتجه عامل النظافة مرةً أخرى بوجهه الساخط إلى السماء للحظات ثم تحرك ليقف خلف عربته فأصبح ظهره يكاد يلاصق ظهر الشاب الأنيق، وقام بدفع العربة ليبدأ دورة جديدة من التنظيف، وفي نفس الوقت كان ذلك الشاب يتجه بوجهه العابس إلى السماء للحظات أيضًا، بعدها قام بالضغط على بعض أزرار هاتفه المحمول، وبعد عدة ثوان وفي نفس اللحظة تقريبًا مضى كل منهما في طريقه، تحرك كل منهما في اتجاه معاكس للآخر وعلى وجه كل منهما نفس درجة العبوس تقريبًا، كان كل منهما يمشي بنفس نوعية الخطوات التي تنبئ بملل صاحبها وضجره مما هو فيه.

شاهد (رمزي) كل ذلك ثم دفع حسابه واتجه إلى منطقة الحمامات فوجدها لا زالت مزدحمةً، وقف حيث كان يقف العامل والشاب ونظر بعينيه في كلا الاتجاهين فابتسم ابتسامةً تحاول إخفاء عبوس وجهه وإرهاقه وضجره، ثم جلب من خزان ذاكرته كثيرًا من الأحداث المماثلة لما شاهده من حال الشابين، بعدها تحرك غير مبالٍ كثيرًا بالاتجاه الذي سيسلكه، فقد أيقن أن العبوس وعدم الرضا سيظلان ملازمين للإنسان مهما كان اتجاهه!

نظرة من الطابق الرابع والعشرين بعد المائة

عندما أنهى عمله في مصنع الزجاج الكائن في منطقة (جبل علي) الصناعية نحو الرابعة عصرَ ا كان إرهاقه قد بلغ حدًا لا يوصف، وذلك من فرط حرارة المصنع التي تضاعف تأثيرها عليه بفعل الطقس الصيفي الحار لذلك اليوم من شهر يوليو، حيث بلغت الحرارة في مدينة (دبي) يومها تسعةً وأربعين درجةً مئويةً، واقتربت نسبة الرطوبة من مائة في المائة.

أنهكته للغاية الحرارة العالية ذلك اليوم، فعلى الرغم من وجود بعض وسائل التهوية والمراوح وبعض أنواع التكييفات داخل المصنع إلا أن تأثيرها يظل محدودًا؛ نظرًا لأن طبيعة الصناعة تستلزم بقاء أفران الزجاج تعمل في درجة حرارة شديدة الارتفاع.

بَدَّلَ (عسران) ثيابه ثم ترك المصنع وركب الحافلة عائدًا إلى منزله، وفي الطريق من المصنع إلى حيث توصله الحافلة -والذي

يستغرق عادةً نصف ساعة- استرجع (عسران) ذكريات ركوبه الحافلة التي كان يستقلها للذهاب إلى مدرسته الثانوية الصناعية في إحدى قرى الصعيد في (مصر).

قارن بين الحافلتين، فالحافلة حاليًا أصبحت أحدث من تلك المتهالكة التي كان يستقلها في (الصعيد)، والرحلة حاليًا تستغرق نصف ساعة مماثلة لرحلته من مدرسته إلى منزله في (مصر)، إلا أن الشوارع حاليًا أحدث وأوسع، أما عن نقطة النهاية فهي في كلتا الرحلتين منزله، وهو حاليًا شقة صغيرة متواضعة مساحتها مماثلة لشقته في (الصعيد) حيث كان يعيش مع أسرته، إلا أنها هنا أحدث وبها بعض الأجهزة الكهربائية الأكثر عصرية، وبالطبع مكيفة تكييفًا مركزيًا مثل سائر الأبنية الحديثة في إمارة (دبي).

أحس (عسران) عندما عقد هذه المقارنة أن حاله لم يتغير عما كان عليه في (مصر)، وأن عشر سنوات أمضاها في هذه المدينة التي تتطور عامًا بعد عام -بل يومًا بعد يوم- لم تغير فيه شيئًا، نفس الطموح المحدود والقدرات التي بالكاد تجعله يعيش على هامش الحياة مع زوجته وأطفاله الثلاثة.

وكذلك تذكر السنوات العشر التي أمضاها قبل مجيئه إلى (دبي) في مدينة (العاشر من رمضان) في (مصر)، وذلك بعد أن ترك قريته الصغيرة فور انتهائه من دراسته الثانوية، وهي سنوات لم تغير فيه شيئًا يذكر إلا بعض التدريب على بعض أنواع ماكينات صناعة الزجاج، وهو التدريب الذي مَكَّنَه لاحقًا من السفر للعمل في أحد مصانع الزجاج في (جبل علي) بـ(دبي).

عدا ذلك ظل (عسران) كما هو، كانت شخصيته انعكاسًا لحياته في طفولته، طموحه محدود كمحدودية مساحة الشقة التي عاش فيها، قدراته محدودة وكأن الضيق الذى عرفه سابقًا منع قدراته من النمو أو التمدد خارج حدود نفسه، أحلامه صغيرة تماثل صغر حجم قريته وفقر مواردها وقلة الخيارات المتاحة لأهلها، رغبته في التمرد على كل هذا كانت صغيرةً بمقدار صغر حجم مساحة الحرية التي عرفها في سنوات عمره الأولى؛ فقد كان ممنوعًا من مجرد محاولة التفكير خارج نطاق أُطرٍ محددة مسبقًا ومرسومة سلفًا؛ وذلك بفعل القوانين العائلية الصارمة والتعاليم الدينية المتشددة، وكذلك ما رآه من بطش السلطة في التعامل مع أهل قريته البسطاء.

وصل (عسران) إلى منزله بعد نحو نصف ساعة، وبعد أن تناول الغداء مع عائلته واطمأن على شئونهم، سأله أصغر أبنائه وكان يبلغ من العمر ست سنوات: أبي، هل أستطيع أن أرسم شيئًا حلمت به؟

فأجابه (عسران): نعم، تستطيع أن ترسم ما تريد.

فقال له ابنه: لقد طلبت منا مدرسة التربية الفنية أن نرسم شيئًا من خيالنا، وقد فكرت أن أرسم حلمًا من أحلامي.

فسأله (عسران) بفضول: وما هو ذلك الحلم الذى تريد أن ترسمه؟

فقال له ابنه: لقد حلمت بأنني أطير عاليًا حتى وصلت إلى قمة برج (خليفة)، ثم وقفت فوق قمته ونظرت إلى (دبي) من ذلك العلو الشاهق، بعد ذلك حلقت فوق كل ركن من أركان المدينة حتى رأيت كل شيء فيها.

أعجب (عسران) بما قاله ابنه وقال له: يبدو هذا حلمًا جميلًا، نعم تستطيع أن ترسمه وأنا متأكد من أن مدرستك ستعجب به.

فقال له ابنه: هل من الممكن أن أطلب منك شيئًا؟

فأجابه (عسران): نعم، أطلب ما تريد.

فقال له ابنه: هل من الممكن بعد أن أنتهي من هذه الرسمة أن تقص عليّ أحد أحلامك لكي أرسمه أيضًا؟

ارتبك (عسران) وفاجأه السؤال ولكي يخرج من الموقف سريعًا قال لابنه: نعم، ولكن بعد أن تنتهي من رسمتك.

ثم قبّله على رأسه وذهب إلى غرفته.

بدا وكأنه انتبه فجأةً إلى شيء ما، فهو لا يكاد يحلم يقظةً أو مناماً، بالإضافة إلى أن أكثر أحلامه جنوحًا وجنونًا لا يستحق الرسم أو الحديث عنه أو الإخبار به.

نظر إلى المرآة واقترب منها فشاهد وجهه باهتًا مكسورًا، باهتًا كأنما تَلَوّن بلون أيامه المتشابهة الخالية من الحياة، ومكسورًا كأنما يعكس انكسار روحه على صخرة واقع الحياة الصلب، ثم تساءل في نفسه: كيف لهكذا إنسان أن يحلم؟ ثم أضاف: إن أقصى أحلامي هو بالكاد يماثل الواقع لملايين آخرين.

فحلمه كان دائمًا حياةً عادية جدًا ولكن ربما أكثر راحةً بقليل من واقعه الحالي، لم يحلم يومًا بامتلاك أكثر من سيارة واحدة ولكنها ربما أحدث بعامين أو ثلاثة من سيارته الحالية التي يعود تاريخ صنعها إلى عشر سنوات مضت، لم يحلم بأكثر من شقة ولكنها ربما أكبر بغرفة واحدة فقط من شقته الحالية، لم يحلم بامتلاك مصنع أو شركة، فقط كان يحلم بمرتب يزيد ثلاثين في المائة عن مرتبه الحالي.

استشعر مدى محدودية طموحاته وضآلة مساحة الحلم في عقله ووجدانه، وكأن استسلامه لقسوة الحياة قد أدى به مع مرور الوقت إلى اضمحلال روحه وانطباقها حتى خنقت أحلامه وتطلعاته.

أمسك ورقةً وقلمًا وحاول أن يرسم حلمه، فلم تكن النتيجة -بعد عدة محاولات- إلا مجموعةً من الأشكال المبهمة داخل لوحة داكنة.

وبعدها بفترة جاءه ابنه ومعه الرسم الذي طلبته منه معلمته، ألقى (عسران) نظرةً عليه، أعجبه الرسم بما فيه من براءة، فقد رسم ابنه نفسه وكأنه واقف فوق أعلى نقطة في برج (خليفة) ينظر إلى المدينة من أعلى، ورسم نفسه أربع مرات أخرى في كل ركن من اللوحة وكأنه يمسك بكل ركن من أركان المدينة.

استدعت هذه اللوحة رسمًا مشابهًا من مخازن ذاكرة (عسران)، لوحة رسمها عندما كان في مثل عمر ابنه، نهض واتجه إلى حيث يحتفظ ببعض متعلقات طفولته في عدة صناديق تحت السرير، بحث حتى وجد ذلك الرسم، وضعه بجانب رسم ابنه ونظر إليهما، ثم عقد بينهما مقارنة سريعة.

كان رسمه باللونين الأبيض والأسود في حين اشتمل رسم ابنه على العديد من الألوان، وضع ابنه برج (خليفة) في منتصف اللوحة في حين تضمنت لوحة (عسران) برج (القاهرة)، وقد رسمه وقتها مثلما شاهده في أحد الأفلام حيث أنه لم يقم بزيارة (القاهرة) إلا عندما بلغ السادسة عشرة، رسم ابنه نفسه أربع مرات في الأركان الأربعة للوحة، في حين رسم (عسران) نفسه وقتها وكأنه يحيط بمدينة (القاهرة) بذراعيه.

أحس بشيء من السعادة فابنه له نفس الطموح، إلا أنه أحس بعدها بشيء من الخوف؛ فقد خاف على ابنه من أن يلقى نفس مصيره، خاف أن ينتهي الأمر بابنه في وظيفة متواضعة وظروف عمل قاسية، خاف على ابنه أن يصبح منتهى طموحه هو إطعام عائلته.

بعدها طلب من ابنه أن يبدل ثيابه.

الابن: لماذا يا والدي؟

(عسران): سنذهب إلى برج (خليفة) الآن.

اصطحب ابنه إلى البرج ودفع ثمن التذكرة الباهظ نسبيًا بالنسبة له، ثم صعدا إلى شرفة (قمة البرج) وهي أعلى نقطة مفتوحة للجمهور يمكن الصعود إليها داخل البرج، ومن الطابق الرابع والعشرين بعد المائة أخذا يشاهدان المدينة من هذا الارتفاع الشاهق.

(عسران): هل ترى يا ولدي كم هى جميلة (دبي)؟

الابن: أجل يا والدي.

(عسران): هل ترى كيف يبدو كل شيء صغيراً من هذا الارتفاع؟

الابن: نعم.

(عسران): هل ترى منزلنا؟

الابن: لا يا والدي، لا أراه.

(عسران): هل ترى تلك البناية الضخمة التي تقع في نهاية شارعنا على بعد نحو مائة متر من المنزل؟

الابن: نعم يا والدي أراها.

(عسران): هل تعلم لماذا تَمَكنَّا من رؤية هذه البناية ولم نتمكن من رؤية منزلنا؟

الابن متسائلًا: هل لأن هذه البناية أكبر؟!

عسران: نعم يا ولدي، لأن هذه البناية أكبر، وهكذا هم البشر، فكلما كنت كبيراً في عملك وعلمك وأخلاقك ومالك رآك الكثيرون، كلما كان نجاحك أكبر كلما رآك الناس بشكل أوضح.

استمع الابن باهتمام ولم يعلق.

وبعد برهة أضاف (عسران): تذكر هذا اليوم جيدًا يا ولدي، تذكر هذا المشهد، احفظه دائمًا في عقلك، لا تجعله يبارح خيالك أو تفكيرك، اجعل هدفك في هذه الحياة أن ترتقي نجاحًا وأخلاقًا فوق الجميع، وكلما ارتقيت ازداد عدد من يرونك، وكلما ارتفعت أصبحت ترى

الدنيا أجمل، فالدنيا من فوق قمة بناية النجاح أجمل كثيراً منها عند قاع الفشل أو عند السطح حيث معظم البشر.

obeikandl.com

نبذة عن المؤلف

أيمن فاروق طه

خبير في أسواق المال ومستشار مالي ومحاضر في مجالات التمويل والاستثمار، وهو حاصل على البكالوريوس في العلوم الإدارية ودرجة الماجستير في إدارة الأعمال. اتجه مؤخرا إلى مجال الكتابة الأدبية، حيث نشر أول أعماله الأدبية وهو مجموعة قصصية بعنوان "حلقات مفرغة" ثم أتبعها بثاني أعماله وهو هذه المجموعة القصصية "ومضات من الماضي". يحاول أيمن من خلال كتاباته التواصل والتفاعل مع أكبر وأوسع شريحة ممكنة من القراء، وذلك عن طريق تنوع الأفكار والمواضيع المطروحة في قصصه اعتمادًا على تراكم خبراته ومشاهداته وأيضًا خياله الابتكاري. كما عمل دائمًا على إثراء تجربته عن طريق تكثيف ملاحظاته وتحليلاته للمواقف والأشخاص خلال عمله وأسفاره وممارسته لهواياته وللكثير من الأنشطة الثقافية والاجتماعية والرياضية. كما عمل أيضًا على تنويع قراءاته لتشمل الكثير عن الحياة والناس والأماكن والثقافات.

الفهرس

إهداء ٥
تقديم وتعريف ٧
ميدان الحياة ١١
ميلاد ورحيل ٢٥

obeikandl.com

المطار ٣٧
دنيا ٥١
انكسار ٨١
ذكريات غير مفهومة ٨٩
عقلية شرقية ١٠٧
رحلة في الاتجاه المعاكس ١٣١
ذكريات من الجانب الآخر ١٤٣
مرآة ١٥٥
المرأة الغامضة ١٦٥
حب وسيطرة ١٧٧
وحدة وانطواء ١٩١
لوحة جدارية ٢٠٣

obeikandl.com

اتجاهان ٢١٧
نظرة من الطابق الرابع والعشرين بعد المائة..... ٢٢٣
نبذة عن المؤلف ٢٣٣
الفهرس ٢٣٥

"لا تسجن معرفتك و بادل كتبك"

القراءة هي الحياة، فنحن نقرأ لنتعرف على خبرات وحكايات الآخرين، نقرأ لنتعلم شيء جديد، لنتعرف من قرب على عوالم قد لا نعرف عنها شيء، لذا صديقي القارئ لا تسجن معرفتك وبادل كتبك مع الآخرين.

فلا تجعل هذا الكتاب يقف بين يدك وحدك، فمن خلاله قد تكون أستمتعت، وتذوقت متعة القراءة، وقد تكون تعرفت على شيء جديد، فلا تبخل عن من حولك بهذه المتعة.

obeikandi.com

موقع دار الكتب
"نحن نحترم الكتاب"

obeikandl.com

obeikandl.com

إصدارات موقع دار الكتب:

١. **فيرجينيا سيكريت**
٢. **كارمن**
٣. **حوار مع النفس**
٤. **المدينة غير الفاضلة**
٥. **ومضات**
٦. **البحر الميت وكفة برج الميزان**
٧. **رياح القبور**
٨. **الفرنسيين والشرق**
٩. **اغتيال رفيق الحريري**

١٠. آية الله الخميني بين الثورة و الطغيان.

١١. قبل أن أموت.

١٢. فتاة شرقية.

١٣. كاتيا.

١٤. شمس.

١٥. التعلم النشط.

١٦. نبضات مغترب.

١٧. رأيت الشيطان.

١٨. حل قضية الجبر والاختيار وقضايا آخرى.

١٩. لوزة قطن.

٢٠. حياة وحنين.

٢١. رحيق العمر.

٢٢. عواطف.

٢٣. الوهم.

٢٤. الاعجاز العلمي في القرآن الكريم.

٢٥. تاريخ مصر الفرعونية.

٢٦. ديوان البت سعاد.

obeikandl.com

٢٧. الكفايات المهنية للتعليم ما قبل الجامعي.

٢٨. الموعد

٢٩. اذا لم تزد على الحياة شيئا كن انت زائد عليها

٣٠. عائدون من بين الانقاض

٣١. -حذاء جديد

٣٢. حلقات مفرغة

٣٣. يوميات طبيب في وطن مسلوب

٣٤. أصحاب الكرش

٣٥. جئت ورحلت

٣٦. سخصية مصر

٣٧. ديور... ابن الحرب

٣٨. رجل مدخر

٣٩. ليلة فى الرنفة

٤٠. استراتيجيات التسويق عبر الفيس بوك

٤١. يوميات مع نفسى

٤٢. سلسلة القائد المتوازن.

٤٣. يوميات واحد فيس بوكاوى

obeikandl.com

٤٤. نصف انسان

٤٥. اريد ان اكون زوجة ثانية

٤٦. حواديت

٤٧. العكاز

٤٨. حرية وكرامة

٤٩. اغتيال رفيق الحريري

obeikandl.com